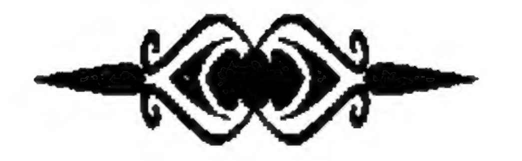
الشيخ احمد بن مصطفى العلاوى..



مفتاح الشهود
فى مظاهر الوجود



الطبعة الثالثة



المطبعة العلاوية بمستغانم

حقوق الطبع محفوظة للمطبعة العلاوية
بمستغانم



سنة 1994



رقم التسجيل : (1496 / 85)



مقدمة الطبعة الثالثة



الحمد لله الذي جعل الوجود دليلا على عظمة ذاته وحض طائفة من عباده بالاستغراق في الحضرة الواحدية ، فشاهدوا غوامض الاسرار ، وحقائق الايمان ، واستمدوا من أنواع المعارف ما يبهر العقول ، بما أفاض الله عليهم من حلل الرضا والقبول ، حتى بلغوا ذروة المقامات ، وأعلى الدرجات .

والصلاة والسلام على الحضرة المحمدية ، أصل الكمال والجمال ، مظهر الشريعة ومعدن الحقيقة ، ومنهج الطريقة الموصلة إلى معرفة الذات الاقدسية ، فصل اللهم عليه وعلى آله وعترته واشياعه ، ومن على سنته وشرعه من المؤمنين والمؤمنات ، والقائمين بأمره من العلماء الوارثين لسر نبوته ، المجددين لأحكام شرعه ، والداعين اليه بالحكمة والموعظة الحسنة في كل زمان بما يليق بأهله .

أما بعد ، فلمّا كان كتاب **مفتاح الشهود في مظاهر**

الوجود ، لمؤلفه قطب العارفين ومربي السالكين الشيخ سيدي أحمد بن مصطفى العلاوي من اعظم الكتب واجلها نفعا لكل مسلم يريد الغوص في بحر حقائق التوحيد ، ويقرع باب المعرفة المستمدة من عجائب الوجود ، الدالة على عظمة الذات التي لا يدرك حقيقتها الا الخواص من ارباب المشاهدة .

ولما كان الكتاب قد طبع منذ اكثر من اربعين سنة ، واصبح من الكتب النادرة التي لا يعرفها الا القليل من القراء وطلاب المعرفة ، رأينا من الواجب الأكيد إعادة طبعه لما له من اهمية ومكانة من بين كتب التصوف ويكفي أنه فيض رباني ، وسر اقدسي ، وجوهرة فريدة ، ودرة يتيمة في هذا الميدان .

ثم ان الكتاب فريد في مضمونه ، فلم يؤلف ـ فيما اعلم ـ على هذا المنهج قبله ، ولا بعده ، مما يدل على رسوخ قدم الاستاذ في ميدان المعرفة ، **وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه** .(سورة: الانعام آية 83) .

تلك كلمة لا بد من قولها خدمة للعلم ، واعترافا لأهله ، وقياما بنشر التراث الجزائري الذي اصبح اكثره في حكم المجهول ، والجزائر في مسيس الحاجة الى الجوانب الايجابية من تراثها الثقافي والفكري ، مما شجعنا على اعادة النظر في الكتاب ، فقمنا بتحقيقه

وتصحيحه مضيفين اليه الفهارس التي تسهل عمل القارئ والباحث. اضف الى ذلك ما بذلناه من جهد في تصحيح الاخطاء المطبعية، ووضع الفواصل والاقواس وعلامات التنقيط، وتحديد فقرات النص، رجاء ان يكون اقرب الى الكمال وتحقيق الهدف المرجو.

واذا كان الكتاب في حقيقته كتاب توحيد ومعرفة، قبل ان يكون كتاب هيئة وفلك، فانه يكتسي اهمية كبرى، اذ يحتاج اليه كل مسلم يريد محاربة الالحاد، ومقاومة اعداء الاسلام الذين يرمونه بالجمود، واهله بالتحجر والتعصب والشذوذ، وخاصة من الامة المحمدية المعبر عنهم بـ (الصوفية)، الذين هم بحق خير طائفة تهدي الى الحق والى الطريق المستقيم. والشاهد على ذلك هذا الكتاب الذي صدر عن اكبر رجل صوفي ظهر في النصف الاول من القرن الرابع عشر الهجري، لا في المغرب العربي فحسب، بل و في العالم الاسلامي.

والله ارجو ان ينفع به كل مسلم تدبر معانيه، وادرك مراميه، وسلك سبيل المؤمنين في الحال والمقال، انه نعم المولى ونعم النصير، وهو حسبي عليه توكلت واليه انيب.

بقلم:الاستاذ يحي الطاهر برقة بوهران

ترجمة المؤلف

اقول: هو الشيخ الكامل، والعمدة الواصل، المربي الكريم، المرشد الحكيم استاذنا الاكبر، وقدوتنا الانور، القطب الكبير، والغوث الشهير سيدي «أحمد» بن مصطفى بن محمد بن احمد، المعروف بالقاضي بن محمد، المشهور (بأبي شنتوف)، وهو الذي مدحه صاحب «سبيكة العقيان فيمن بمستغانم من الاعيان» قال رحمه الله:

والحنفي اللازم التعبد * نجل عليوة الفقيه المهتدي

ابن الوَاليُّ الصالح الملقب (بمدبوغ الجبهة) ابن (الحاج علي) المعروف عند العامة بـ (العلاوي) وهو الذي تنتسب اليه عائلة المؤلف ابن غانم، وقيل هو الذي أول من قدم من افراد العائلة من بلدة الجزائر الى مستغانم للقيام بوظيفة القضاء، والباقي من هاته العائلة لا زال معروفا بالمجد، مشهورا بالصلاح موصوفا بالخير والعفاف، أدام الله ذكرهم، وحفظ فروعهم في كنف الله على أتم نعمة وتوفيق، وما توفيقي الا بالله.



نشأتـــــــه

نشأ هذا المؤلف (قدس الله سره ورزقنا والمسلمين رضاه) مجبولا على حب طاعة الله، ساعيا في صفاء قلبه، طالبا من الله غاية قربه، فاجتمع بالملاذ الانفع الشريف الارفع، الشيخ سيدي (محمد) بن الحبيب البوزيدي، رضي الله عنه، المعروف عند العامة بـ (حمو الشيخ) فأخذ عنه الطريقة، ودام في خدمته بجد واخلاص، الى ان نال منه ما تبتغيه الرجال من المقام الاسنى، والتربية الحسنى، التي ما قذفها الله في قلب رجل وألبسه حلتها، الا كان ينبوعا من ينابيع حكمته، او بحر من بحور معارفه، طافحا بالامواج يملأ الكون بإشراقه، والقلوب بأذواقه.

وقد ظهرت بركة شيخه عليه، فأصبح يربي بين يديه بإذنه، والف كتابه (المنح القدوسية) على المرشد المعين، فطرب به استاذه، وكان يرغب في مطالعته، واحيانا يمسكه فيجهش بالبكاء. ثم يضعه ويكثر من حمد الله على نجابة ابنه الذي امده الله بفيوضاته، واجرى الحكمة من قلبه على لسانه. **ومن يوت الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا.** (سورة البقرة: آية 269).

سبب تأليف الكتاب:

واني اذكر يوما اخبرني فيه المؤلف عن سبب تأليف هذا الكتاب، قال رضي الله تعالى عنه وقدس سره: تدبرت في عوالم خلق الله يوما، وأجلت الفكر في مواقعها وتنظيم حركتها، فوجدتها حكمة بليغة، وقدرة عظيمة، لا يتوصل الى غايتها لبيب، ولا يدرك حقيقتها أريب، **الا من اذن له الرحمن ورضي له قولا**. (سورة طه: آية 109) لانها من غيب الله، والله لا يظهر على غيبه احدا، **الا من ارتضى من رسول** (سورة الجن: آية 27). وقد كنت قبل تسطيري لهذا الكتاب امر في الطريق وانا مشتغل البال بالعوالم العلوية، حتى احس من نفسي كأني اذود في مناكبها، واشاهد افلاكها رأي العين، ثم يشملني حسي فأرجع الى نفسي، وانا مندهش - حيران، ولما غلب علي هذا الحال، وتكرر مني مرار بثثته الى الشيخ، واخبرته بما كان يقع لي تفصيلا، فقال لي رضي الله عنه: ضعه في كتاب تسترح منه. فعمدت الى تأليف هذا الكتاب، ولما فرغت من مسودته استرحت مما كان يعتريني من ذلك الانجذاب والاختطاف الباطني، فصرت مستريح البال، متنعما بفضل الله، والله ولي المتقين.

هذا ما معناه الذي سمعته منه شفاهيا ، وطلاوة الوجدان تلوح على وجهه ، كأنه الشمس بازغة في ساعة هدوء وصفاء ، ذلك نعته وتلك هي صورته اذا انصفه الواصفون .

اسلوبـــــه

اما سلاسة قلمه ، وجزالة عبارته ، ورقة معانيه ومتانة مبانيه ، فهي من اجود ما يراه القارئ ، ومن اعذب ما يتذوقه الذائق ولا شاهد اعدل مما سيراه القارئ مسطورا في هذا الكتاب من بلاغة الخطاب ، والتنقيب عن رقائق السنة والكتاب ، والى الله المرجع والمآب ، والله عنده حسن الثواب ، قلت واصفا لقلمه:

رعا الله من بين الضروف هماما
اتاه من فضله يرعى حماما
اذا طرق الطرس كان صريره
الأمين على قلب النبي اقاما
فذاك امامنا العلاوي احمد
عليه رضوان الله يعلى مقاما

خديم النسبة: عدة بن تونس
رحمه الله آمين

مقدمة المؤلف

يقول عبدربه ، المفتقر الى ربه ، في حسه ومعناه ، احمد بن مصطفى بن عليوة المستغانمي ، لطف الله به في مجاري الاقدار ، ورزقه ثمرة التفكير والاعتبار .

حمدا لمن نور بصائر العارفين بالشهود والعيان ، حتى شاهدوا غوامض الجبروت في ظواهر الاكوان ، وكشف لهم الحق عن حقائق ما يكون والذي كان ، وكسا قلوبهم حلة الايمان والايقان ، احمده جل شأنه على معرفته الجامعة لنواميس العرفان ، واشهد ان لا اله الا الله الواحد في ازليته ولا زال ، المتصف في ذاته بالكبير المتعال ، المنزه في عظمته عن الشبيه والمثال ، المتقدس في احديته عن الصور والاشكال ، انما تقع الأشكال لمن فيه الاشكال ، وتضرب الامثال لمن له مثل في ذاته ومثال ، واما الظاهر الذي لم يثبت مع ظهوره صورة ولا خيال ، فهل يكون للحس معه من مجال ، إذ لو كان مع ظهوره ظاهر ، لما اتصف بالصمدانية والجلال ، جلت عظمته ان تتكيف بالكيف ، او تضرب لها الامثال ، كيف تتكيف بالكيف ، والكيف في حقه محال ، واشهد ان سيدنا ومولانا محمدا مظهر الجمال ، ومنتهى المجد وذروة

الكمال، شهادة عبد مخلص في حبه صادق في وده، واثق لـ محمد بعهده، صلى الله عليه وعلى آله واهل نصرته ما دامت البواطن تنهل من وروده، والظواهر متمسكة بشرعه، قائمة بامره.

اما بعد: فاني وضعت هذا السر اللطيف، والامر المنيف، في هذا الكتاب الشريف، ورتبته على مباحث، اذكر فيها من عجائب الموجودات، ما يبهر العقول في الدلالة على عظمة الذات، بكيفية تسهل لمن تدبره، وبعين الرضى لاحظه وابصره، وسميته **مفتاح الشهود في مظاهر الوجود**. واني مرتجي الله ان يكون نافعا لي وللمسلمين، ويرشدني واياهم الى مقام اليقين، واني وان كنت لست اهلا للارشاد، لعدم الفصاحة وقلة الاستعداد، لكن اذا فهمت المعاني فلا عبرة بالالفاظ، فلينظر القارئ فيما رسمناه بعين الفطانة والاعتبار، لا بعين التعنت والانكار، فالمقام خطير، والفهم قصير، وليحذر كل الحذر من ان يبسط لسانه بما ليس له به علم، **فان بعض الظن إثم**، ومن قصرت همته على الانتفاع به، فليسلمه لأهله فان لكل علم ناسا، ولكل شراب كأسا. جاء في الخبر: **ان من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه الا العلماء بالله، فاذا اظهروه انكرته اهل الغرة بالله** وفي رواية **لم ينكره الا اهل الاغترار بالله، بل كذبوا**

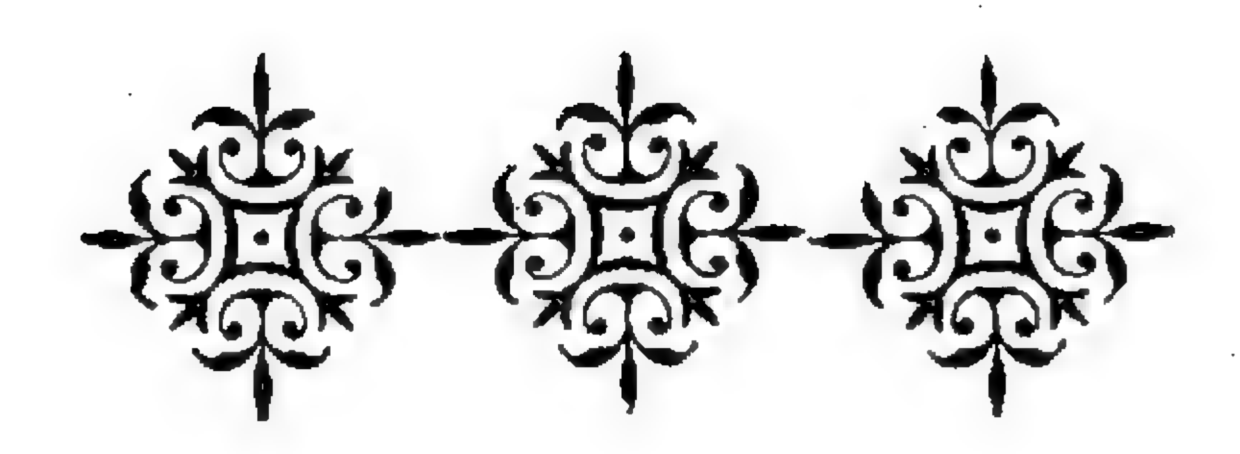
بما لم يحيطوا بعلمه، (**ولو ردوه الى الرسول والى اولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم**).

نعم ذكرنا في هذا الكتاب ما تستبعده العقول، لولا ان ذيلناه بالنقول، والداعي لذلك امر غيبي كان يهجم على قلبي فيمنعني ان نجول فيما سوى العلويات، وتارة يأخذ بمجامع قلبي الى مقتضى الذات المقدسة، وكانت الواردات والمعارف تترادف علي من كل مقام بما لا تسعه الافهام، وكنت عنها اتلاهى، ولا اعتمد مقتضاها، الى ان تغلبت علي وفي الفؤاد تحكمت، فعلمت من نفسي التقصير، واعتقدت اني في هذا المقام اسير، فألقيت لها الانقياد، وسلمت لله فيما اراد، بعد ما التجأت الى ولينا الكبير، استاذنا الشهير، قدوتي في طريق الله سيدي واستاذي (محمد ابن الحبيب) البوزيدي الشريف المستغانمي، فأشار علي بهذا الكتاب، وان لا نأتي فيه بأعجب العجاب، مشيرا إلي بحديث: **حدثوا الناس على قدر عقولهم**، متمثلا بقول ابن الفارض:

فثم وراء النقل علم يدق عن * مدارك غاية العقول السليمة

فعملت بإشارته، وتذكرت ان الحق يجري على السنة علماء كل زمان بما يليق بأهله، لما في التنزيل المعول عليه: **وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه**. ولا يخفى ما في ذلك من الحكمة، **يبعث الله على رأس كل مائة**

سنة من يجدد لهذه الامة امر دينها(1) حسب الامكان والدهور (تحدث للناس اقضية بحسب ما أحدثوه من الفجور) (2) والمقصد الاهم المحافظة على عقائد الدين (3) والله متولينا وهو يتولى الصالحين.



(1) وفي النص اشارة الى ان المؤلف من المجددين للدين.

(2) هي مقالة لسيدي عمر بن عبد العزيز.

(3) فتبين ان الحامل له رضي الله عنه على جمع هذا الكتاب هو ما كان يتوقعه من مستقبل الامة وما يحدث فيها من العقائد حتى ربما يظن من لا خبرة له ان المعارف الوقتية ليس في الديانة الاسلامية ما يشير اليها فيكون كالمحتقر لعلماء الاسلام والمسلمين.

المبحث الاول

وفيه ما يفيد الاستغراق في عظمة الله وفي الكلام على الحضرة الاحدية



أقول:ان الاحدية قد تكلم فيها المتكلمون، وعبر عنها المعبرون، ولم يستوفوا ولو اقل القليل من حقائقها، وهم مقصرون من وجوه كثيرة، واني اشد تقصيرا منهم، لان حقيقتها، لا تدرك بلفظ ولا اشارة، ولا بتصريح ولا بعبارة، جلت عن العبارة، وتنزهت عن الاشارة، كيف يشار بالحدوث الى القدم؟ ام كيف يشبه الوجود بالعدم؟ فالمقام الذي يقتضي بطون الاسماء والصفات، كيف يشار اليه بالمكونات، التي هي متلاشية، باعتبار ذات الذات التي لا ذات مع تلك الذات، ذات مجردة، ونفس مفردة، لا تقبل نقصانا ولا زيادة، امر مجيد، وكنز غميض، بحر لا موج فيه، ولا فسحة لديه، لا يمين ولا شمال، ولا كيف ولا مثال، وما احسن قول القائل حيث قال (1):

---

(1) الانسان الكامل: لعبد الكريم الجيلي (ج 1 ص14) القاهرة (ط2 1328 هـ)

لا عين تبصره لا حد يحصره

لاوصف يحضره من ذا ينادمه

كلت عبارته ضاعت إشارتـــه

هدت عمارته قلب يصادمـــه

وهـذا المقـام قبـل التجـلي، وامـا بعـده فتسمـى في الاصطلاح بالواحدية وهو المبحث الآتي.

المبحـــث الثانـي

في الكلام على الحضرة الواحدية

اقول:ان الواحـدية عيـن الحضـرة الاحـدية لا غيـر، الامـن حيـث التجـلي فـإنهـا تستلـزم ظهـور الاسمـاء والصفـات، التي تقتضـي شيئـا زائـدا عـلى الذات وهـو التعلق، ولا زائـد باعتبـار التحقيـق، ومـا كـان الا الـذي كـان، لانهـا لا تقبـل الزيـادة كمـا انهـا لا تقبـل النقصـان **(كان الله ولا شيء معه)** (1) وهـو الآن على مـا عليه

(1) منتهى الحديث في قوله لا شيء معه وما زاد على ذلك هو من كلام القوم لكنه يتضمنه معنى الحديث لان كان اذا صرفت الى الله تفيد الدوام والاستمرار.

كان، إلا من حيث التعلق لكي يظهر الخالق والمخلوق، فانه تعالى اثبت الشيء وهو لا شيء، الشيء مفقود في صورة موجود، فإياك ان يقع بصرك على الموجودات فتتوهم انه وقع على وجودها لذاتها، وهنا زاغت الابصار الا من كان بصره حديدا، وتحقق ان البصر لا يتعلق بالمفقود، فعلم يقينا انه وقع على وجود موجد الاشياء لا على الاشياء نفسها، لان الاشياء من ذواتها العدم، والحدوث لا يثبت مع القدم.

نعم تضاربت الاسماء والصفات لتعلقاتها على وفق مراد الذات، فكل يطلب ما تقتضيه حقيقته، والحق قادر على ان ينزل الاسماء منازلها، فتجلى لكل اسم بما يقتضيه تجليا منه اليه، فتفرعت الموجودات عن الاسماء والصفات، والكل راجع الى الذات، والى الله تصير الامور، قدر الاشياء سبحانه في سابق علمه، ثم افرغ عليها من وجوده مع ان الوجود لا يثبت لغيره:

من لا وجود لذاته من ذاته

فوجوده لولاه عين محال (1)

والمعنى: **كل شيء هالك الا وجهه**، والهالك اسم فاعل شامل غير مختص بزمان دون آخر، والضمير في قوله

---

(1) هو من شعر سيدي ابي مدين رضي الله عنه.

‹وجهه› يحتمل رجوعه (1) الى ‹الشيء› ووجه الشيء وجه من وجوهه تعالى، بدليل **اينما تولوا فثم وجه الله،** هذا هو المعول عليه على ما يقتضيه التوحيد الخاص الخالص، والله ولي التوفيق.

المبحث الثالث

في الكلام على الافعال الالهية وفيه ما يختص بالصفات الازلية



اقول: ان الفعل مع فاعله كالشيء الواحد قبل بروزه، اي (الفعل)، من صاحبه. واما بعده فيكون وصفا له، وعلى كل فهو من تمام معناه، جاءت الاشياء من حضرة العلم، والعلم متصف بالقدم، ومن العجب ان يسمى هذا المقام بالعدم (2) فانحصار الاشياء في سابق العلم،

(1) ورجوع الضمير الى الشيء صحيح المعنى كما ذكره بعض المفسرين وان كان المتبادر من الفهم رجوع الضمير الى الله عز وجل.

(2) يشير بذلك الى الوجود العلمي وكان الاستاذ رضي الله عنه يقول: ان وجود هذه الاشياء في علم الله كوجود ما يتخيله الانسان في ذهنه بجامع، وهو عدم الوجود في الخارج، فمعلومات العلم تصوراته لا غير.

يشعر به كل من له ادنى فهم، وهو اليوم الاول من ايام الله الستة التي خلقت فيها السموات والارض، فكانت الاشياء من حيث هي منحصرة في العلم القديم انحصارا كليا. واما تخصيص الارادة لها، فهي عبارة عن اليوم الثاني، فلا شك انها منحصرة في مراد الله، **ما شاء الله كان**، ثم تعلقت بها صفة الكلام بعد الارادة: **انما امره اذا اراد شيأ ان يقول له كن فيكون**. وهو بمنزلة اليوم الثالث.

ثم تلقتها القدرة عن كلمة، «كن» وهو دخولها في اليوم الرابع، من ايام الله. فما ابرزته القدرة برز، وما لا فلا. ثم تعلق بها السمع والبصر عند تمام ايجادها، لانهما لا يتعلقان بالمفقود، وهما بمنزلة اليوم الخامس والسادس، فصارت الاشياء منحصرة فيهما انحصارا كشفيا. ثم: **قال لها وللارض إيتيا طوعا او كرها قالتا اتينا طائعين**.

ثم ان اطلاق اليوم (1) على الصفة وارد في كلام الله ومنه قوله تعالى: **وذكرهم بأيام الله**. أي بصفات الله على

(1) فان ما تأوله الاستاذ رضي الله عنه في هذا الباب من جهة اليوم انما هو راجع لمعناه البعيد. اما الذي هو قطعة من الزمان الناشىء عن دوران الكواكب في افلاكها فسياتي الكلام عليه في المبحث الثاني والعشرين.

ما قاله بعض المفسرين من اهل الله، ولا يخفى ما في ذكر اليوم من التورية، فانه يحتمل كلا المعنيين، الا ان المعنى البعيد اهم من القريب وانسب لهذا المقام، لانه ورد فيما قبل خلق اليوم الذي هو برهة من الزمان الناشئ عن دائرة الفلك، فلهذا اضيف لله ولم يضف للدنيا، قال في (روح البيان) على هذا المعنى: ايام الله في الحقيقة هي التي كان الله ولم يكن معه شيء من ايام الدنيا، ولا من ايام الآخرة، فعلى السالك ان يتفكر، ثم يتذكر كونا في مكنون علم الله تعالى، ويخرج من الوجود المجازي المقيد باليوم والليل، الى الوجود الحقيقي الذي لا يوم عنده ولا ليل.

والمعنى هو ان نعتبر ما ذكرناه من انحصار سائر الموجودات في الصفات الازلية، ونتيقن ان لا وجود لها في الخارج عن الصفات الست، ولما كانت الحياة لا تتعلق بالممكنات، انفردت الستة السابقة دونها. نعم اخذت حظها من الاستواء عند قوله: **ثم استوى على العرش**. والله اعلم.



المبحث الرابع

في الكلام على ابتداء خلق الموجودات

فأقول: من المعلوم ان حقيقة الاشياء واحدة وان افترقت في نظرنا ، بدليل قوله تعالى: **يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب كما بدأنا اول خلق نعيده** فهذا ابتداؤها ومآلها . وهكذا فيما يظهر الآن لمن أمعن النظر ودقق الفكر . **ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة**. وهذه النفس الواحدة هي التي تنفس بها الوجود المطلق ، وظهر الحق بالخلق ، والمعنى انه تدلى من القدس الالهي فيض ، فتشكل بالازمنة والاماكن ، ولهذا نهينا عن سبب الزمان لما يروى:« ... انه هو ... الدهر ، والدهر هو الله» .

قال ابن عباس رضي الله عنه: «اول ما خلق الله تعالى جوهرة فنظر اليها بالهيبة فذابت واضطربت ، ثم ثار منها دخان بتسليط النار ، وعلى هاته الجوهرة كل يعبر بما اصطلح عليه». اما القوم فيعبرون عنها القبضة النورانية .

قلت: ولما نظر لها الحق ، ببصر الهيبة والجلال ، وتجلى عليها تجليا يوجب الاضمحلال ، حتى خللتها نار

الجلال من خشيته، تنفست دخانا من هيبته، فكانت سماء بقدرته. **فسواهنَّ سبع سموات**. واخذت الحكمة الالهية في تدريج الموجودات الى ان تم نظام العوالم على وفق مراد الله، ومما يظهر ان سائر الافلاك والمراكز والسموات خلقت من الدخان كما تقدم، (**ثم استوى الى السماء وهي دخان**) وانفراد السماء بالذكر من باب الاكتفاء.

ثم امر تعالى الاجرام على اختلافها ان تأخذ مراكزها وافلاكها فامتثلت امر ربها، وكيف لا وقد (**قال لها وللارض إيتنا طوعا او كرها، قالتا اتينا طائعين**) (**فتبارك الله احسن الخالقين**).

المبحث الخامس

فيما ورد في عدد العوالم

أقول: كثرة العوالم لا تحصى، وعددها لا يستقصى، فهي جند الله الاعظم (**وما يعلم جنود ربك الا هو**) الا انه جاء في الخبر ما يدل على الحصر: **ان لله ثمانية عشر الف عالم كعالمكم هذا**. قيل: ان الدنيا والاخرى

عالم واحد (1) ولعل المراد بالحصر المبالغة في الكثرة، لانه ورد في بعض الاحاديث (2) ما يزيد على هذا العدد، وعلى كل، فينبغي للعاقل ان يمعن النظر، ويعتبر فيما حواه الاثر، قال تعالى: **فاعتبروا يأولي الابصار**. وما مدحت الافكار الا لا نتخاب الجواهر والاسرار، ورد (**ان تفكر ساعة افضل من عبادة سنة**) (3) وقد ذكر الغزالي رضي الله عنه: ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على اصحابه ذات يوم وهم يتفكرون، فقال: **ما لكم لا تتكلمون؟ فقالوا: نتفكر في خلق الله عز وجل. فقال: فكذالك فافعلوا، تفكروا في خلقه ولا تتفكروا فيه. فان بهذا المغرب ارضا بيضاء نورها بياضها، وبياضها نورها، مسيرة الشمس فيها اربعون يوما،**

---

(1) اما رواية وهب فهكذا: ان لله ثمانية عشر الف عالم، الدنيا عالم منها، وما العمران في الخراب الا كفسطاط ضرب في صحراء.

(2) ومنه ما ذكره في «شرح الاربعين النووية» للشبرخيتي عن «ابي سعيد الخدري» (ان لله اربعين الف عالم، الدنيا من شرقها الى غربها عالم واحد) اهـ ولكعب الاحبار رضي الله عنه: ما يحصي عدد العالمين احد الا الله قال تعالى: وما يعلم جنود ربك الا هو) وهذا ما اثبته العلم الحديث من اكتشاف مآت الآلاف من المجرات التي تحتوي على ملايين النجوم البعيدة عنا بملايين السنوات الضوئية.

(3) وفي رواية: افضل من عبادة اربعين سنة) وفي رواية افضل من عبادة الدهر اهـ وهذا باعتبار ما يرجع لاحوال المتفكرين.

بها خلق من خلق الله عز وجل لم يعصوا الله طرفة عين. فقالوا يا رسول الله فأين الشيطان منهم؟ فقال: لا يدرون خلق الشيطان ام لا. فقالوا: أمن اولاد آدم؟ قال: لا يدرون خلق آدم ام لا (1). وفي هذا الحديث ما يدل على اتساع ملك الله عز وجل، وعظيم سلطانه، حيث ذكر هاته الارض وعظمتها، وان اهلها لا يدرون خلق الشبطان ام لا. وليس هي الاشيء من الجملة، اي من بعض خلق الله، وثم امور لم يتضح كشفها.

وفيه ايضا ما يدل على ان العوالم السابقة خارجة عن عالمنا هذا بل لا خبرة لهم به ف (**لكل إمرئ منهم يومئذ شأن يغنيه**) وعليه فمن اعتقد ان العوالم جميعها منحصرة في هاته الكرة الارضية، فقد عظمت في نظره عظمة صدته عن عظمة الله، حيث لم يلتفت لما عند الله في الخارج عن هذا العالم، قال عليه الصلاة والسلام: **ان لله ملكا لو قيل له: التقم السموات السبع والارضين بلقمة لفعل، تسبيحه سبحانك حيث كنت**. نقله في ‹روح البيان›.

---

(1) وفي رواية ابن عباس: ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ان لله ارضا بيضاء، مسيرة الشمس فيها ثلاثون يوما مثل ايام الدنيا ثلاثين مرة، مشحونة خلقا لا يعلمون ان الله تعالى يعصى في الارض، ولا يعلمون ان الله تعالى خلق آدم وابليس. هـ ذكره الغزالي في (جواهر القرأن).

وقد كنت تكلمت مع بعض المتسببين الى العلم في الحديث نفسه، فذكر لي ان سائر العوالم توجد في عالمنا هذا، واخذ يذكر في بعض الاجناس ويقول: ان الوحوش عالم، والطيور عالم، الى ان ذكر ما شاء الله، فقلت: ان هاته الاصناف ذكرت في كلام الله اما عند قوله تعالى: **ولا طائر يطير بجناحيه الا امم امثالكم.** فاعترض، ثم اخلد الى الارض، فقلت: صدق احسن القائلين: **وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتنا معرضون.** ولو رفعنا رؤوسنا الى السماء، واستغرقنا الفكر في عجائب الحكمة، لرجع بما يبهر العقول، ولكن اخذنا منها زروقتها وضي الكواكب. قال الغزالي: فان البهائم تشاركنا في هذا النظر، ولو كانت هاته فائدته، فلم مدح الله سيدنا ابراهيم بقوله: **وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين.**



المبحث السادس

في الكلام على بيان تلك العوالم اين توجد على سبيل الاحتمال

فمن استقر عنده ما تقدم من اتساع ملك الله عز وجل، وعظيم سلطانه، وعلم يقينا ان قدرة الله صالحة لما في الامكان، لا يستبعد ما سنذكره له من العوالم.

هذا وان اهم ما اعتبرناه في هذا الكتاب راجع لمواقع النجوم، وكنت اعتقدها كغيري ممن لا اهمية له بصنع الله عز وجل، ونرى منها ما تراه البهائم، الى ان اخذ الله بفكري، وشرح صدري بسبب قوله: **فلا اقسم بمواقع النجوم، وانه لقسم لو تعلمون عظيم**. قلت: استعظام القسم لعظمة المقسم به، فعند ذلك التفت لعظمتها اي النجوم، وجلت في مواقعها، فاتضح عندي ان امر النجوم معتبر، وبعد المسافة وضعف الابصار (1) اوجب لها الاحتقار، مع انه جاء في الاثر ما يدل على عظم جرمها، وعلى ان النجم الواحد يعدل بالارض

---

(1) على حد قول ابي العلاء المعري حيث قال:

النجم تستغر الابصار رؤيته ❊ والذنب للطرف لا للنجم في الصغر

اضعافا، ومما قاله الغزالي: ان اصغر النجوم يعدل بالارض ثمانين مرة، ومنها ما ينتهى الى مائة وعشرين مرة. وغير هذا من الاقوال. واذا ثبت ما ذكر من ان النجم الواحد يعدل بأرضنا ما شاء الله مع كثرة النجوم التي لا تستقصى، فمن الممكن ان يوجد فيها ما ذكره الشارع من ثمانية عشر الف عالم. والمعنى انها عامرة، والا فما الفائدة في كبر جرمها ان لم يوجد فيها من خلق الله، وصنعه ما يبهر العقول، وقد جرت عادة الله انه ما من مكان الا وفيه سكان على حسب ما يقتضيه ذلك المكان، كما هو مشاهد في اجزاء الارض، اذ ما من شيء لو فتشته لوجدته مسكونا، ومما يدل على كونها مسكونة اي الكواكب، ما ذكره سيدي محي الدين في «الفتوحات»: ان جميع النجوم والشموس (1) والاقمار مراكب الملائكة واملاك هذه المنصات، منهم جنود وامراء ووزراء وملوك. ثم قال: فكل سلطان لا ينظر في احوال رعيته، ولا يمشي بالعدل بينهم، ولا

---

(1) ويستفاد من قول الشيخ محي الدين بن عربي انه يوجد في ملك الله عدة شموس واقمار، حيث انه ذكرهم بصيغة الجمع، وقد اثبتت الكشوفات الحديثة الى ان جميع النجوم المرئية وغير المرئية شموس باستثناء المجموعة الشمسية فهي كواكب واقمار (توابع) وسياتي من كلام المؤلف ما يدل على ذلك.

يعاملهم بالاحسان الذي يليق بهم، يستوجب العزلة منهم. قلت: ومن الجائز ان تكون الكواكب مستقرا لخلق الله، وليس في ذلك الا ما يدل على عظمة الله فتبارك الله رب العالمين.

المبحث السابع

في قوله تعالى: ان السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما

وفيه ما يشعر بمجانسة الارض لنجوم السماء، تقدم ما يدل على ان الموجودات قبل تشتتها وانفصالها كانت في جوهرة بيضاء، ولما وقع عليها التجلي الاول، وانفصل البعض من الكل، تعددت الاجرام، وانتشرت على صفحات الوجود حسب: **تقدير العزيز العليم**، ومن ذلك السموات السبع وما حوته من الاجرام، فانها اخذت حظها من الكرسي كغيرها: **وسع كرسيه السموات والارض**. ولنأت ببعض ما يتعلق بها من جهة انفصالها عن بعضها وغير ذلك.

فاقول: لا يخفى على العاقل ان السموات والارض كانتا رتقا اي مجتمعة جواهرا واعراضا، ولطافة وكثافة

شيء واحد ، ثم فتقت **فكانت وردة كالدهان** ، ليعتبر اولوا الاذهان . قال تعالى: **ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الالباب** . عن عطاء السلمى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت هاته الآية بكى حتى بلت لحيته . ثم قال: **ويل لمن قرأ هاته الآية ولم يتفكر فيها** . واذا علمنا من جهة النقل ان سائر اجرام العالم كانت مجتمعة مثل الارض والنجوم والشمس والقمر (1) فلا نستبعد حينئذ كون الارض من جنس الكواكب العلوية ، وذلك لوجود المناسبة ، واتحاد النشأة في قوله تعالى: **كانتا رتقا ففتقناهما**. وقال في روح البيان: الفتق الانفصال بين المتصلين ، وهو ضد الرتق ، اي ففصلنا وفرقنا احداهما عن الاخرى . واذا صح عندك الاتصال في اول النشأة بين الارض والكواكب ، فما المانع ان قلنا بمجانسة الارض لهم بعد الانفصال ، ولعل المانع ما تراه من ضي الكواكب المباين لصلابة الارض ، فاستبعدت التجانس بينهم ، فسناتي في المبحث الآتي ، ان شاء الله ، بما يفيدك ان الارض تظهر لسكان بقية الاجرام العلوية منيرة ، كما يظهر لك القمر ليلة البدر . **صنع الله الذي اتقن كل شيء**

---

(1) وفي التنزيل ما يشير لذلك كقوله (وجمع الشمس والاقمار) اذا طبقناه على قوله (كما بدأنا اول خلق نعيده) يتضح ان الشمس والقمر كانتا كرة واحدة اول النشأة .

المبحث الثامن

في احتواء السماء ووسعها وفيما يدل على ان الارض جوهرة من جواهرها

جاء في اقوال اهل السنة ما يدل على ان السموات محيطة (1) ببعضها ، وعلى ان الارض جوهرة ملقاة بين السموات بالنسبة لوسعها ، وهو قول الجمهور كما في «روح البيان» . وتقدم لنا ايضا ما يدل على ان الارض اصغر جرم بالنسبة الى غيرها من الكواكب السماوية ، وعلى كل حال هي من مظروفات السماء ، فلا تستعظمها في نظرك وتنسى عظمة السماء ، فما هي الا جوهرة من جواهره ونقطة من رشحاته . قال الغزالي: من آيات الله ملكوت السموات وما فيها من الكواكب ، وهو الامر كله ، ومن ادرك الكل وفاته عجائب السموات فاته الكل تحقيقا ، فالارض والبحار والهواء وكل جسم سوى السموات بالاضافة اليها كقطرة في بحر او اصغر .

---

(1) وممن قال بدورية السماء واحاطتها ببعضها الفخر الرازي في تفسيره واورد على ذلك دلائل حسية ، ومن جملة ما قال: ان ليس في النصوص ما يدل دلالة قطيعة على كون السماء مبسوطة .

واذا علمت انها جرم صغير بالنسبة لعظمة السماء، واتضح عندك ان السماء محيطة بها وبغيرها، فلا تستبعد حينئذ كون الارض محيزة آخذة قدرا من الفراغ كما هي عادة الاجرام، وبهذا تعرف انها من العلويات مستقرا ومنشأ لكن مع تدقيق الفكر، ولنأت بمثال تقديره: لو ان شخصا انفصل عن الارض وتباعد عنها غاية البعد، ثم التفت اليها فلا محالة يدرك احاطة الفراغ بها من كل جهة، وينحصر جرمها في نظره كما انحصر في نظرنا جرم الشمس مع عظمته بالنسبة الى الارض، وهكذا كلما طالت المسافة الى غاية تصيرها في نظره. كجرم القمر في نظرنا، وتتصور المسألة فيمن كان في السماء الثانية مثلا فإنه لا يرى من الارض الا كما يرى احدنا جرم القمر، فان قلت: كيف يراه، هل يراه مضيئا ام لا ؟ فأقول: لا يراه الا مضيئا كما هي العادة في غيره من الكواكب، لان الارض غالبها مغموس في البحر كما سيأتي وهو معلوم بالضرورة، ولم يبق من البر الا شيء مرتفع قدر الربع منها متشتتا على انحائها، وعند حصول البعد الكلي عنها كما تقدم تضعف صورة البر في الادراك، ويختفي في وجود الماء لان الحكم للاكثر، ولن يظهر منه الا شيء قليل يماثله ما نراه من السواد المخطط في جرم

القمر ليلة البدر، ولنرسم لك صورتها تقريبا مع مقابلة الشمس لها وهذا احد شقي الارض برا وبحرا:



فاذا حصلت المقابلة بينها وبين الشمس كما ترى، فلا محالة تشرق الشمس في مياه الارض فتكسى حلة الضياء كغيرها من الكواكب، لان الماء قابل لصورة الضياء كما هو مشاهد كالمرآة الصقيلة، فتظهر حينئذ للمقابل مضيئة، وهكذا تظهر الآن لسكان السموات على صورة حسنة في غاية الاستنارة (1) ومنهم من

---

(1) ويشبه هذا ما ذكره بهاء الدين العاملي في كتابه (الكشكول): قال: كما ان جرم القمر يقبل ضوء الشمس لكثافته، وينعكس عنه لصقالته، كذلك الارض تقبل ضوءها لكثافتها، وتنعكس عنها لصقالتها، لاحاطة الماء باكثرها، وصيرورته معها ككرة واحدة، واننا لو فرضنا ان شخصا استقر على القمر، تكون الارض بالقياس اليه، كالقمر بالنسبة الينا، وبحركة القمر حول الارض، يخيل اليه انها متحركة حوله. هـ قلت: ويظهر مما نقلناه ان الاستاذ ليس هو اول من قال بما تضمنه هذا المبحث من علماء الاسلام، من ان الارض تظهر مضيئة عند سكان بقية العوالم.

يعلمها انها مستقر لخلق الله، ومنهم من لا يأخذ منها الا الضياء ولا علم له بما وراء ذلك، **وفوق كل ذي علم عليم** ولا تظن انها تظهر عندهم في الاسفل، كما هو المتبادر فهمه، انما تدرك عندهم في العلو، مثل ما تدرك الكواكب عندنا، وذلك لأن الشمس اذا غربت تمر اسفل الارض مع انها في السماء الرابعة. وهكذا ‹زحل› وهو في السماء السابعة، ومثلها بقية الكواكب. فمن كان في جرم زحل مثلا حالة مروره اسفل الارض، فمن المعلوم تظهر له الارض في اعلى المنازل، كما يظهر لنا ‹زحل› نفسه. وقس على ذلك بقية الكواكب، وعليه فلا تجهل رتبة الارض وتعتقد انها في الحضيض الاسفل، والحالة انها كأمثالها تارة وتارة، ولها الحق ان تكون بين الملأ الاعلى، يتنازعها الشرف من جهة المكانة، وكيف لا وقد بعث فيها من خلق الملأ من اجله، فلا عجب ان كانت ارضه سماء، ولهذا قال بعضهم:

خير ارض ثويت فهي سماء * بك طالت ما طاولتها سماء



المبحث التاسع

في قوله تعالى: الله الذي خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن

لما قدمنا ما يدل على ان السماء محيطة بالارض من كل جانب في المبحث الثامن، تعين بيان ما يتعلق بالاراضي السبع وبيان مواقعها بين السموات، لأن النص الصريح دل على وجودها كما دل على وجود السموات السبع. قال تعالى: **الله الذي خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن**. واني لا ارى في التنزيل ما يدل صراحة على الارضين السبع غير هاته الآية، وان ذكرت مجملة فهي في غاية البيان المستفاد من تشبيهها بالسموات، ووجه الشبه بينهما هو تسلط الخلق عليهما، واستواء العدد في كل منهما يستفاد ايضا من قوله تعالى: **يتنزل الامر بينهن**. انفصال الارضين عن بعضها، والمعنى ان كل ارض مستقلة بنفسها كما هو قول الجمهور (1) من

---

(1) وعمدتهم في ذلك ما اخرجه ابن جرير، وابن ابي حاتم، والحاكم وصححه البيهقي في الشعب، عن ابن الضحى، عن ابن عباس، رضي الله عنهما في قوله تعالى: (ومن الارض مثلهن) قال سبع ارضين في كل ارض نبي كنبيكم وآدم كآدمكم ونوح كنوحكم وابراهيم كابراهيمكم وعيسى كعيساكم قال البيهقي اسناده صحيح غير انه شاذ ه نقله في الاجوبة الكافية) قلت: ويعزز معنى الحديث ما رواه مجاهد عن ابي عباس رضي..

اهل السنة، بقطع النظر عمن اعتاد الجحود واتخذ معتقده قصص اليهود، فانه لا يكاد يفقه حديثا **انما يذكر اولوا الالبلب**. قال في ‹روح البيان› باختصار: ان ما بين كل ارض من الاراضي السبع كما بين السماء والارض، وفي كل ارض خلق من خلق الله. وعبر ‹القرطبي› عن هذا القول بالاصح. قلت: لأنه المنصوص عليه في عدة احاديث، ومنها ما نقل في ‹روح البيان› ايضا من حديث طويل عن ‹ابي هريرة› رضي الله عنه، آخره: ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه: **اتدرون ما تحتكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: الارض وتحتها الارض، بينهما مسيرة خمسمائة عام ثم قال: والذي نفس محمد بيده لو انكم دليتم بحبل لهبطتم على الله. ثم تلا قوله تعالى: هو الاول والاخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم** (1) ففي هذا الحديث ادل

... الله عنهما قال: لو حدثتكم بتفسير قوله تعالى: ومن الارض مثلهن، لكفرتم وكفركم بتكذيبكم اياها ومما حقه ان ينقل في هذا الباب ما ذكره (الكواش) ان ما بين كل سماء مسيرة خمسمائة عام وكذا غلظ كل سماء والارضون مثل السموات فكما ان في كل سماء نوعا من الملائكة يسبحون الله ويقدسونه ويحمدونه فكذا لكل ارض اهل على صفة وهيئة عجيبة ولكل ارض اسم خاص كما ان لكل سماء اسما خاصا وعن عطاء ابن يسار في هذه الاية ان في كل ارض آدم كآدمكم ونوح مثل نوحكم وابراهيم مثل ابراهيمكم وعيسى كعيساكم، قالوا معناه: ان في كل ارض خلق الله لهم ساداة يقومون عليهم مقام الانبياء هـ من (روح البيان).

(1) اما الحديث المشار اليه فقد رواه الترمذي واحمد ونقله في مشكاة....

دليل واوضح بيان ، فيما يدل على انفصال الارضين عن بعضها ، بوجود المسافة التي لا تحتمل الاتحاد بينهما كما بين السماء والارض ، وعليه فاستفدنا من ذلك ما استفدناه من طباق السموات ، فكما ان لكل سماء محلا ، كذلك كل ارض لها مستقر ، وملكه تعالى اوسع لو كانوا يعلمون ، ونظير هذا ما ذكره (البخاري) وغيره عن (كعب) انه حلف بالذي فلق البحر لموسى ، ان صحبيا حدثه ان النبي صلى الله عليه وسلم لم ير قرية

... المصابيح للشيخ ولي الدين (محمد بن الخطيب) العمري ونصه عن (ابي هريرة) رضي الله عنه قال: بينما نبي الله صلى الله عليه وسلم جالس واصحابه اذ اتى عليهم سحاب فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم: هل تدرون ما هذا ؟ قالوا الله ورسوله اعلم . قال: هذا العنان هذه زوايا الارض يسوقها الله الى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه . ثم قال هل تدرون ما فوقكم ؟ قالوا : الله ورسوله اعلم . قال: فانها الرفيع سقف محفوف وموج مكفوف . ثم قال هل تدرون ما بينكم وبينها ؟ قالوا الله ورسوله اعلم . قال: بينكم وبينها خمسمائة عام . ثم قال: هل تدرون ما فوق ذلك؟ قالوا الله ورسوله اعلم . قال: سماء ان بعد ما بينهما خمسمائة سنة . ثم قال: كذلك حتى عد سبع سموات ما بين كل سماء ما بين السماء والارض . ثم قال: هل تدرون ما فوق ذلك؟ قالوا الله ورسوله اعلم . قال: ان فوق ذلك العرش وبينه وبين السماء بعد ما بين السماءين ثم قال: هل تدرون ما الذي تحتكم ؟ قالوا الله ورسوله اعلم . قال: انها الارض ثم قال هل تدرون ما تحت ذلك ؟ قالوا الله ورسوله اعلم قال: ان تحتها ارضا اخرى بينهما مسيرة خمسمائة سنة . ثم عد سبع ارضين بين كل ارضين مسيرة خمسمائة سنة . ثم قال والذي نفس «محمد» بيده لو انكم دليتم بحبل الى الارض السفلى لهبطتم على الله . ثم قرأ: (هو الاول ولآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم) .

يريد دخولها الا قال حين يراها : **اللهم رب السموات السبع وما اظللن ورب الارضين السبع وما اظللن** ، الى الخ الحديث. فدل على ان كل ارض لها استقلال ومنه حديث ابن عباس رضي الله عنهما انه قال: كل ارض من الارضين منفصلة مستقلة مثل ارضنا ، وان في كل منها عالما كعالمنا . ذكره في ‹الحصون الحميدية› ويشبهه ما نقل عنه ايضا في (انسان العيون) قال: **سبع ارضين في كل ارض نبي كنبيكم، وآدم كآدمكم، ونوح كنوحكم، وابراهيم كإبراهيمكم، وعيسى كعيساكم**. رواه الحاكم في (المستدرك) وقال انه صحيح الاسناد .

والمعنى ان في كل ارض خلق الله لهم سادات يقومون عليهم مقام الانبياء ، والكل راجع الى تأكد الانفصال واستقلال كل ارض بنفسها ، ‹**وما ذلك على الله بعزيز**› واذا فهمت ما صرحت به الآثار ، فاجعله سلما لتتوصل به الى سماء الافكار ، قال تعالى: **فاعتبروا يا اولى الابصار** .

فبطون الحقائق في الشرائع كبطون الزبدة في اللبن ، فبالمخض يظهر ما خفى ، والا فما فائدة النقول اذا لم تصاحبها العقول؟ وخلاصة الكلام دائرة على ما تقدم من قوله تعالى: **الله الذي خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن**. والمعنى ان كل ارض تماثلها سماء لتحصل

المقابلة والتزاوج بينهما ، لأن حكمته تقتضي من كل شيء زوجين اثنين (1) فكلما خلق سماء وسواها خلق منها زوجها ، لقوله: **والارض بعد ذلك دحاها** ، أي في دائرة سمائها . وهكذا كل ارض ارساها واخرج منها ماءها ومرعاها متاعا لمن فوقها . ولهذا قلنا : كل ارض محتاجة لسماء ، ليتنزل الامر بينهن ، وستفهم ان شاء الله ما اجملناه ، ان استصحبت فكرا سليما ، مع ما سنذكره من المعارج التمثيلية .

اقول: ثبت فيما سبق ان السماء محيطة بالارض من كل ناحية ، احاطة الجوزاء بلبها ، والارض ممسوكة فيما بين ذلك ، والمسافة التي هي بين السماء والارض من جهة العلو ، فهي كذلك من جهة الاسفل ، او نقول من الجهات الست فاستحضر هاته الهيأة في خيالك ، يتبدى لك ان جرم الارض معلق بين ذلك لا ممسك له الا الله ، ثم انفصل عنه ، وتنح الى الارض السفلى ، واستحضر كأنك هناك مستقر ، ثم ارجع الى المحل الذي تدليت منه ، والحالة ان مابينك وبينه خمسمائة عام ، فهل

---

(1) والى ذلك الاشارة بقوله تعالى: (والسماء بنينها بأييد وان لمسعون والارض فرشناها فنعم الماهدون ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون)

ترى فيما يصل اليه بصرك من فطور، كلا . **ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير.** والمعنى انك لا ترى الا الجو مستويا ، ولا ترى من جرم الارض الا كما ترى الآن احد الكواكب، بسبب ما لها من الضياء، والا فلا ترى رأسا لبعد المسافة، وعليه فلا تحصل حينئذ الا على رؤية السماء مرصعا بالكواكب كعادته ، والارض جوهرة من جواهره، لأن بعد المسافة يصير الا جرام مستوية المنازل. وان اختلفت مواقعها ترى رأي العين قريبة من بعضها ، كما هو مشاهد في الكواكب التي فوقنا ، فإنها ترى على صفحات السماء ، مع ما بينها من المسافة التي لا تحتمل الاتحاد واذا فهمت هذا ، فلا محالة تفهم نظيره اي ما يتعلق بالارضين السبع ، لأنك اذا كنت في الارض الثانية تدرك ما قدمناه، واذا انسلخت منها الى الارض الثالثة التي بينك وبينها من المسافة حسبما سبق، فلا تحصل من الارض الثانية الا كما حصلت من الاولى، وترى الجو مستويا كما قدمناه، وقس على ذلك بقية الارضين، وما من ارض الا ولها فلك سماوي، او نقول مستقر علوى، بالنسبة لمن تحته، والله يعلم مستقرها والراسخون في العلم .

وعليه فيكون مستقرها بالنسبة لها فلكا ، وبالنسبة

لمن تحتها سماء، حيث ترى عنده في مستوى الآفاق، ومن هنا يتضح لك ان الارض السفلى مدحوة في السماء من جهة الشق الأسفل منه، وهكذا ما تحتها من الارضين، فكل ارض مدحوة في سمائها الى منتهى السبع سموات، ويشهد لهذا ما تقدم من ان ما بين السماء والارض من جهة الاسفل مساويا لما بينهما من جهة الاعلى الى خمسائة عام، وهاته المسافة هي التي ثبتت فيما بين هاته الارض، والارض السفلى في حديث ابي هريرة رضي الله عنه.

ولما اتحدت المسافة لزم اتحاد الجرمين أي جرم الارض السفلى مع جرم السماء من جهة الاسفل، وعليه فتكون الارض ملتصقة على صفحات السماء ولا مانع حينئذ من ان يكون هو مستقرها، او يكون فلكا لها، ومن المعلوم ان لكل جرم مستقرا وجاذبية تمنعه من السقوط وهي وظيفة الأفلاك السماوية والمحيطات الدورية، واذا تعذر عليك ادراك ما اشرنا اليه دونك معراجا لتتوصل به، وذلك انه تقدم لك ما يدل على ان السماء (1) محيطة بالارض مما يمنعك من ان تدرك الشق الاسفل منها، ولعلك تقول جرم الارض، فاقول:

---

(1) يعني بالسماء الغلاف الجوي المحيط بالارض من كل جانب.

نعم، هو الذي سد عليك ما يمكن ادراكه من الشق الاسفل من السماء، وعليه لو قدرنا زوال جرم الارض من مكانه والله قادر على إزالته، فمن المتعين ان يقع بصرك على ما هية السماء من جهة الاسفل، واذا تعلق بها البصر فما ذا يرى منها ؟ فهل يرى اكثر مما يراه الآن من جهة العلو كلا انما يرى الكل سماء حيثما سار، ولا يرى في الارض السفلى التي هي تماثل السماء في بعد المسافة الا كما يرى الآن من احد الكواكب بالنسبة لما لها من الضياء المكتسب من مقابلة الشمس لها كما تقدم في غيرها من الاجرام السماوية، واذا كانت كذلك فلا محالة تكون مختصة بسمائها، وهكذا غيرها من الارضين السبع باختصار، ولهذا قلنا فيما سبق ان كل ارض وسمائها وتكون بهذه المثابة الارض ارضا بالنسبة لمن استقر على ظهرها، وكوكبا بالنسبة لمن وقع بصره عليها من الخارج.

والحاصل من هذا ان ما يستفيده الفكر من لوازم الذكر ان الاشارة بالارضين السبع صالحة ان تنطبق على بعض الكواكب من السيارة وهو قريب الاحتمال، خصوصا وقد اتفق العقلاء على انه لا يوجد غير هاته الاجرام المعروفة بالكواكب بين السموات السبع (1) ومن

---

(1) يعني مجموعتنا الشمسية ودلّ العلم الحديث على اكثر من ذلك.

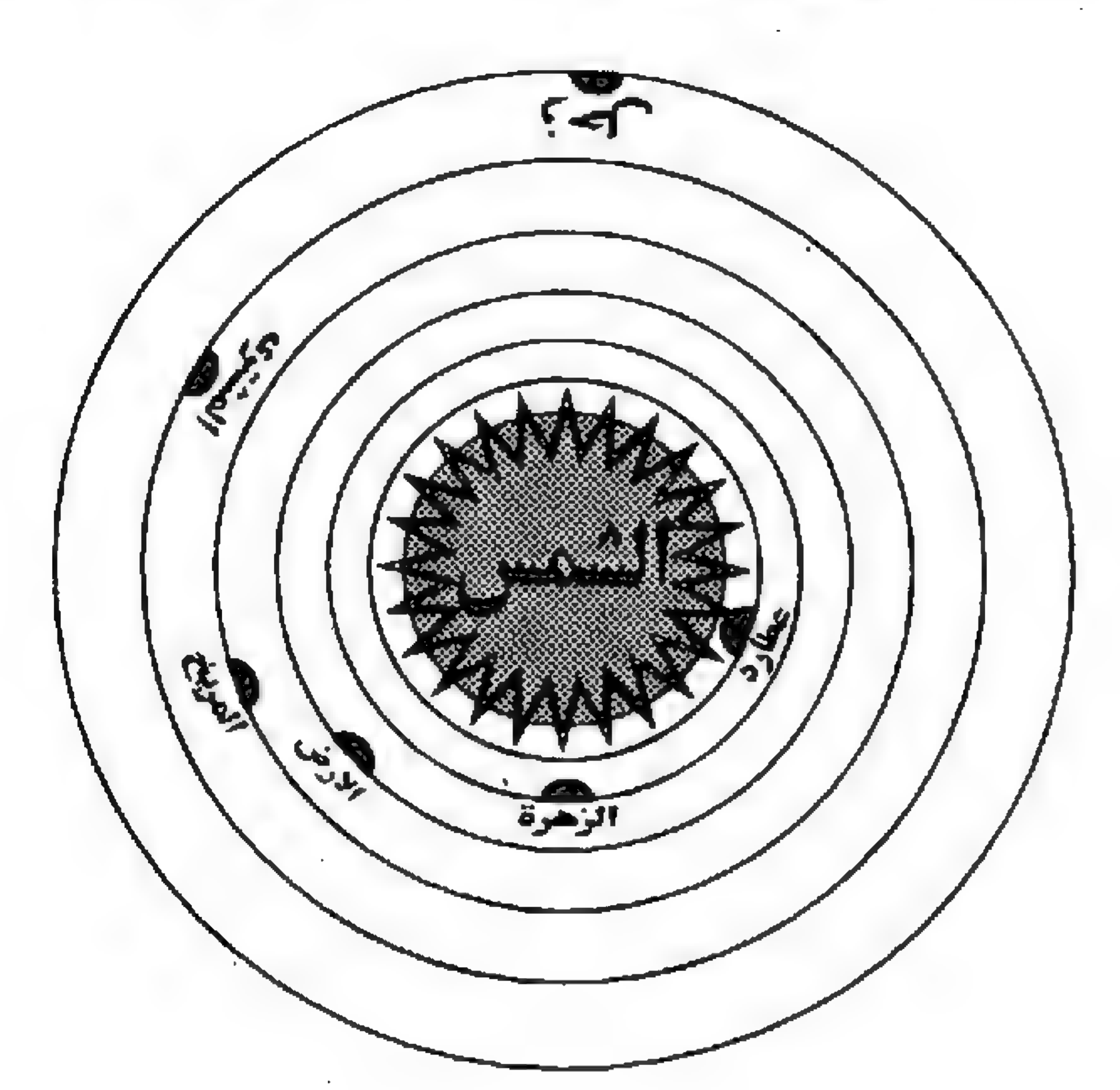
الاولى ان لا نلتفت لغيرها ان لم يعارضها في ذلك ما يصادم نصا صريحا ، ولا ارى في هذا الباب الا الاحتمال حيث طابقتها النعوت المتقدمة ذكرها من كونها اجراما منفصلة عن بعضها ، مستقلة بنفسها عظيمة بذاتها معمورة بخلق الله حسبما يناسبها ، مدحوة في افلاكها ليتنزل الامر بينها وبين غيرها ، وبالخصوص لما تقدم ما يدل على ان الارض من جنسها ، وعليه فأي مستنكر ان تكون الارضون السبع من جنس بقية الكواكب بهذا الاعتبار والله اعلم بما وراء ذلك (1) من الاسرار. وسياتي ان شاء الله في المبحث الآتي ما يزيدك اظهارا من جهة ما يتعلق بحركتها ومواقعها وغير ذلك.

(1) وقال الاستاذ رضي الله عنه ان ما ذكرناه في هذا الباب ليس هو من طريق القطع ولا من التحكم في شيء.

المبحث العاشر

فيما يتعلق بالكواكب السيارة من جهة الفلك وكبر الجرم ومستقر الارض بينها وغير ذلك

اقول: لا يخفى على الحاذق ان حركة الكواكب في افلاكها انما المتوقف فيه صورة الهيأة مع مستقر الارض وحركتها ، وفي اي حيز تكون ، ولهذا تعين قبل الشروع فيما يتعلق بذلك ان نرسم دائرة الأفلاك مع ما حوته من الاجرام المعتبرة على سبيل التقريب والا فالامر غريب.



فهذه هيئتها على ما يظهر وما عند الله اعظم وابهر، ومن تعذر عليه ان يفهم اين مستقر الارض بين الكواكب فليراجع ما سبق من المباحث مع تحديد الفكر، فانه يراها رأي العين، وكيف لا وهو الآن يرى بعين رأسه اذا جن الليل تظهر نجوم في افق السماء يعجز الفكر عن احصائها، ثم تمر اسفل الارض ويظهر غيرها من الكواكب في آخر الليل، واين تكون الارض ان لم تكن بين ذلك؟ ولا مانع ان قلنا به والحالة كذلك.

ثم اعلم ان السهم المرسوم وسط الدائرة يشير لسير الكواكب من الشمال الى اليمين على ما يظهر. فتأمله مع ما رسمناه من احتواء الافلاك ومستقر الكواكب واختلاف منازلها، ليسهل عليك تناول ما ذكرناه المستفاد من قوله تعالى: **لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار، وكل في فلك يسبحون**. وقيل: ان التنوين في قوله ‹كل› عوض عن مضاف اليه وتقديره: كلهم اِي سائر الشموس والاقمار وغير ذلك من الاجرام المسكوت عنها في فلك يسبحون. واقتصاره تعالى على ذكر الشمس والقمر من باب الاكتفاء، والا فكل يجري الى اجل مسمى، واني لا ارى من يستبعد حركة الاجرام السماوية وان عظمت، وانما المستبعد عندهم والمشكوك فيه حركة الارض وسيأتي ان شاء الله

ما يفيدنا الشعور بذلك، لان الكلام على حركتها يستدعى طولا ، ولنتكلم الآن على ما يتعلق بحركة غيرها من السيارات، ونبتدئ باوسعها فلكا وهكذا على الترتيب فنقول:

اوسع السيارات فلكا بالنسبة للسموات السبع «زحل» (1) وهو نجم كبير الجرم للغاية حتى قيل انه يعدل بالارض بما يقرب من الثمانمائة مرة، وهو ابهج الكواكب نظرة، واحسنها صورة، وفيه من صنع الله ما يبهر العقول، ومن جملة بهجته ان جعل الله له اقمارا عديدة تضيء عليه الى ان صار ليله نهارا ، ونهاره يباين ما عندنا ، لأن الشمس لا تظهر عنده الا كما يظهر القمر عندنا ، ولهذا لا تؤثر فيه حرارة لبعدها عنه، فهو في غاية الاعتدال، ويقطع فلكه فيما يقرب من ثلاثين سنة باعتبار عددنا . وتكون هاته المدة سنة (2) وهو

---

(1) وهذا باعتبار ما كان عليه الاقدمون، والا فقد اكتشف علماء الفلك الآن ما يدخل تحت سلطان الشمس من غير المرسومة في الدائرة والبالغ عددها تسعة كواكب، فقد اكتشف كوكب اورانوس عام 1781 الفلك ويليام هرشل. ثم اكتشف كوكب نبتون عام 1846 وراء مدار اورانوس وفي عام 1930 تم اكتشاف الكوكب التاسع وهو كوكب «بلوتو» وهو ابعد المجموعة الشمسية عن الشمس (3.700 مليون ميل).

(2) ولعل هذا الجرم هو المشار اليه بالحديث المتقدم في الذكر، عن ابن عباس رضي الله عنهما : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ان لله..

باعتباره. وهذا ما يتعلق به على سبيل الاجمال والله اعلم.

ويليه في وسع الفلك نجم المشتري، وهو اعظم الكواكب السيارة حسبما قيل على سبيل التقريب، وانه يعدل بالارض بما يزيد على الالف مرة، ويقطع فلكه فيما يقرب من عشر سنين لقربه من الشمس بالنسبة الى زحل، وتكون هاته المدة سنة له كما تقدم في النجم الاول، وهو اشد حرارة واسرع مسيرا بالنسبة الى زحل، الا انه ادنى منه في الحسن، وله بضعة اقمار تضيء عليه عند غيبته عن الشمس، وتظهر الشمس عنده اكبر مما تظهر في زحل، ولا تستغرب ما ذكرناه من انه يعدل بالارض ما تقدم مهما كنا على يقين من ان قدرته جلت ان تتوقف على ما في ادراكنا القاصر.

ثم انه يلي «المشتري» في وسع الفلك «المريخ» وجرمه يعدل الارض مرة ونصف، ويقطع فلكه في نحو ثمانية عشر شهرا، وارضنا هاته تضيء عنده مثل القمر عندنا

..ارضا بيضاء، مسيرة الشمس فيها ثلاثون يوما.. الخ. وزحل ثاني اكبر كوكب في المجموعة الشمسية يبلغ قطره (74100 ميلا) في حين يبلغ قطر الارض 7927 ميلا) فقط. فكتلة زحل اكبر من كتلة الارض بـ (94.9 مرة) وبعده عن الشمس يقدر بـ (886 مليون ميل) يتم دورته حول الشمس في نحو من ثلاثين عاما من اعوام الارض، وله تسعة اقمار تدور حول محوره.

فتنوب عن الشمس في غيبتها ، ويوجد بين الارض والمريخ نوع مشابهة .

ثم يليه ‹الارض› في الوسع ، وهي مستقر البشر ، وقد تقدم ما يدل على مجانستها للكواكب السماوية ، وسيأتي ما يتعلق بحركاتها . واما ما يتعلق بمساحتها فهو معلوم على سبيل التقريب عند اهل الهندسة والجغرافيين ، وتقطع فلكها في ثلاثمائة وخمسة وستين يوما ، وهي المسماة بالسنة ، وفيها تتم الفصول الاربعة ، وسيأتي ما يتعلق بذلك ، ولها قمر وهو المشاهد عندنا . اما فلكه فمندمج في فلك الارض ، لأن سماءه هو سماء الدنيا وهكذا كل كوكب له قمر يندرج في فلكه ، ويأتي الكلام على ما يختص بالقمر .

ومما يلي الارض في وسع الفلك نجم ‹الزهرة› ، وجرمه يقرب من جرم الارض ، وانه يماثله من وجوه كثيرة حتى قيل لو ان احدا انفصل عن الارض الى جرم الزهرة او العكس لا تنعدم بنيته لاتحاد المزاج على ما يظهر ، ولا يبعد ان (هاروت وماروت) كان مستقرهما هذا الكوكب ان ثبتت نقلتهما والله اعلم بما وراء ذلك . ويقطع فلكه في نحو مائة وخمسين يوما ، وارضنا تعطيه من الضياء ما يغنيه عن القمر عند استتار الشمس عنه .

ومما يلي الزهرة في وسع الفلك ‹عطارد› ، وهو اصغر

الكواكب جرما وفلكا ، فجرمه يقرب من نصف الارض ، ويقطع فلكه في نحو الثمانية وثمانين يوما ، لقربه من الشمس ، فمن اجل ذلك كان شديد الحرارة ، لان الشمس تظهر عنده اعظم مما تظهر عندنا ، وهذا ما تيسر ذكره من جهة الافلاك وسير الكواكب فيها ، والله اعلم بما وراء ذلك .

المبحث الحادي عشر

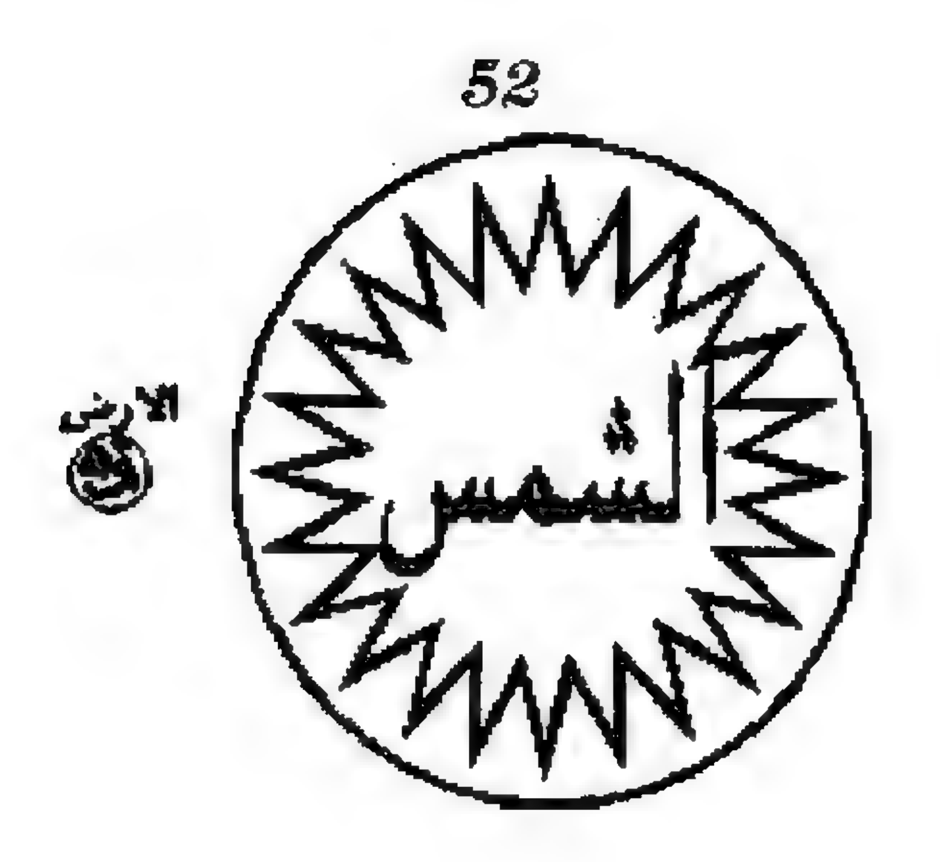
فيما يتعلق بالشمس من جهة كبر الجرم والحركة وغير ذلك

اقول: ان الشمس هي روح الهيئة الفلكية المتقدمة في الذكر باعتبار ما لها من التصرفات في جزئياتها ، اي في الاجرام المنفصلة عنها ، جاءت وسط الدائرة بمنزلة القلب من الجسد ، ولهذا سميت بالعين لتستمد منها الاجرام المختصة بدائرتها كما هو في ارضنا ، اذ لو سترت عنا الشمس بالمرة لجاءت الآزفة ، وانشق القمر ، فوجودها شرط في مستمر الوجود **سنة الله التي قد خلت من قبل** . قال تعالى: **ليوم تشخص فيه الابصار** ، وتنفجر

فيه البحار (**اذا الشمس كورت واذا النجوم انكدرت**) وهو بعض ما يتوقع بسبب تكويرها اي ذهاب نورها فذكر ان النجوم تتكدر والبحار تنفجر فهي كالروح اذا زالت من البدن تتعطل الحواس. وهذا البعض من خصائصها، واما ما يتعلق بعظمتها فتقدر على سبيل التقريب، والا فالامر غريب. جاء في اقوال السنة ما يفيدنا المبالغة، اي من كونها تعدل بالارض اضعافا (1) مضاعفة، وفي تقدير اهل النظر انها تعدل بالارض الف الف مرة، وفيه ما يوافق الاحتمال بسبب ما بيننا وبينها من المسافة، ولم تزل انوارها تؤثر وعظمتها تظهر **صنع الله الذي اتقن كل شيء**. فعظمة الشمس من غرائب الموجودات، ومن ذلك لو ان جرم الارض سقط بسرعة على جرمها، لم تتأجج منه، ولا يثير شيأ في هيئتها. انما تقول (**هل من مزيد**) ولنرسم لك جرم الارض بالنسبة لها على سبيل التقريب:

---

(1) كتلة الشمس اكبر من كتلة الارض نحوا من (332000) مرة، ولو جمعنا عددا من الكرات لنبلغ باحجامها مثل حجم الشمس لبلغ نحو (1000000) كرة مثل الارض. ولكننا نرى قرصها صغيرا بسبب بعدها عنا.



تأمل هذا الجرم العظيم، ومن الممسك له من ان يزول ؟ فتقدس عظيم الجبروت .

ثم اعلم ان هيئة الشمس تحتوي على غرائب مدهشة ، يكل عنها التعبير ، بعدت مسافة الشمس بعدا (1) لا يحتمل التحديد ، وكفاها انها في السماء الرابعة ، فاين موقعها منا لو تاملناه ، فشتان ما بيننا يفنى الزمان والسير لا ينتهي ، ومع هذا لم نزل نسطلي نارها ، ونتوقى حرها ، فو العجب ما هاته الحرارة التي لم تحل بيننا وبينها المسافة ، وعليه فلو تخيلنا ما هناك من عظيم سلطانه تعالى ، المتجلي به في هذا الجرم العظيم ، لدكت اوهامنا دكا ، واحرى لو عايناه ، والحقيقة اعظم مما في الخيال .

---

(1) الشمس اقرب النجوم الى الارض تبعد عنا بمقدا 92 مليون ميل . ويصلنا ضوئها في حوالي ثماني دقائق بسرعة 186000 ميل في الثانية .

ثم اقول: ان ذات الشمس نارية، الا نقطا خلالها خالية، وهي المشار اليها بالسواد في البياض، الا ان اضعف البقاع منها تعدل بالارض مساحة، وعلى كل حال تخفى في الغالب. وبالجملة، ان جرم الشمس جاء على صورة هائلة، فهو بين اهتزاز واضطراب. يكاد يتميز من الغيظ، وباهتزازه تهتز اجرام العالم المتقدمة في الذكر، وبحركته تقع الحركة الفلكية، الا ان حركتها يتعذر ادراكها بداهة، والمعنى انها ليست من مشهودات البصر العمومي (1)، ولهذا استغنى الشارع عن الخوض فيها، لما تقتضيه من اضطراب العقول، وزيادة انها ليست من مقاصده، عليه الصلاة والسلام، فانه كان يبلغ ما يعود على الامة بالصلاح العاجل، ويأتي بالحق البين، الذي لا يحتاج الدليل، وكثيرا ما يتكلف، ويقيم البرهان لاثباته، فكيف لو سمعت منه «قريش» يقول: ان سير الشمس ليس هو مشهود بالبصر، انما ذلك

(1) ويعني بذلك حركة المسير الانتقالية اما دواران الشمس حول نفسها فقد شاهد الاكتشافيون بما توصلوا اليه بالآلات الحادثة، ان في وسط جرم الشمس شامات تبدو في طرفها الشرقي، وتغيب في طرفها الغربي، ثم تظهر من طرفها الشرقي، فعلم انها مع شاماتها تتم دورة واحدة حول نفسها في مدة قدرها خمسة وعشرون يوما، واربعة عشر ساعة، وثمانية دقائق، دورة عندها على محور نفسها. وسيذكر المؤلف حركة غير هذه.

متوقع من دوران الارض، للزمه ان يستغرق كل الدهر في اقامة الدليل على ذلك. ويخرج من صورة الى غيرها، وكيف لا، وقد اخبرهم بوحدانية الاله التي لا تحتاج الى ايضاح، فرموه بالجنون، وبكل ما تجل عنه رتبته عليه الصلاة والسلام، ولم يستقر الايمان في قلوبهم، الا بحجج باهرة، لو وقعت على الجبال لدكت، ولهذا كان يستغني عن كل حديث معدوم النتيجة، وكثيرا ما يواجه السائل بكلام يخالف مراده ويستلفته لما هو اهم من ذلك، وهكذا لما سئل عليه الصلاة والسلام عن سبب نقصان الهلال وزيادته الذي هو من قبيل هذا الفن المتعذر ادراكه في الغالب، علمه الحق عز وجل كيفية الجواب، ليتفرغ في ادنى الوقت لما هو اهم من ذلك قال تعالى: **يسألونك عن الاهلة قل هي مواقيت للناس والحج**، ثم رتب آية تشعرنا بما هو اهم من ذلك وهو قوله: **وليس البر بان تاتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى**. وان كانت الاية ليست مقرونة باختها وقت النزول، ففي ترتيبها سر هذا مفاده: اي ليس ما تبحثون عنه هو المقصد الاهم الذي بعثت الرسل من اجله، وانما المقصد الايمان بالله.

وها انا استأنف الكلام على ما يتعلق بحركة الشمس فأقول:

اضطربت العقول مع النقول في هاته المسألة، فالنص الصريح يدل على حركتها، وبعض العقول تشهد بانها مركز لغيرها، ولا سلطان للعقل مع صريح النقل الا فيما احاله الحق عن نفسه قال تعالى: **والشمس تجري لمستقر لها**، فتعين الايمان بحركتها على اي وجه كانت، فمن اهل النظر من يقول ليس لها الا دورة واحدة على محورها بدون انتقال، فهي مركز لغيرها، وعليه فان تعذر عنه ادراك ما فاته من السير، فيحمل النص على حركتها في حيزها، ويأخذ بشطر من الايمان الى ان ياخذ الله بيده، ومنهم من توسع في معلوماته الى ان وجد لها حركة اخرى تدق عن الادراك لخفائها، من حيث انها سائرة والارض تسير بسيرها فاختفى سير الشمس بعدم مفارقة الارض لها حالة السير، فجرم الشمس لم يزل مقابلا لجرم الارض كيفما كان، وبهذا توقف الناظرون، ومثل ذلك كمن ركب سفينة وجعل قبالته شيئا من اجزاء المركب، وكلما فتح بصره وجده مقابلا له فيتوهم ان ذلك الجزء ليس بمتحرك، وعلى هذا يكون للارض ثلاث حركات: دورة على نفسها، وهي معقولة يتوقع منها الليل والنهار، ودورة على جرم الشمس، وهو السير الذي تتوقع منه الفصول الاربعة، وسير وراء الشمس، كما يظهر ان الشمس تسير تحت

سلطان كوكب، وقيل انه من كواكب الثريا . وسيأتي ما يتعلق بحركة الارض، وعلى كل حال، ف **الشمس تجري لمستقر لها**، الا ان السير ليس هو المشهود في نظرنا على ما يقولون. قال ‹ابو السعود›: قُرئت هاته الآية (لا مستقر لها) على ان ‹لا› بمعنى ‹ليس›، والمعنى ان الشمس لم تزل ظاهرة، وانما تغيب عن اقوام وتظهر عند آخرين، وهو قول الجمهور من اهل السنة، حسبما نقله في ‹روح البيان› عن ‹امام الحرمين› قال: لا خلاف في ان الشمس تغيب عن قوم وتشرق عند قوم آخرين، والليل يطول عند قوم ويقصر عند قوم آخرين، وعند خط الاستواء يكون الليل والنهار مستويين، والارض مدورة، وعليه فكمون الشمس يكون في نظرنا لا في الواقع، خلافا لمن توهم اندراج الشمس في عين من عيون الارض، وزعم انه الاخذ بالنص الصريح. قال: ‹الرازي› ومثله في ‹الجلالين›: ان غروب (1) الشمس في عين حمئة ليس هو غروبا بالفعل، ولهذا قال تعالى:

---

(1) قال بعض اصحابنا في قوله تعالى: (وجدها تغرب في عين حمئة) فكانه يقول: وجدها انها لم تغرب، انما تغرب في عين حمئة، اي في العيون المطموسة التي لم تتصل بشعاع البصيرة، وتستصحب النظر في المصنوعات، وعليه فهي تغرب في هاته العيون التي وصفها تعالى بالحمئة لا في غيرها، اي نفس عين الانسان.

وجدها تغرب في عين حمئة، ولم يقل فاذا هي، او ما يفيد تحقيق وقوع الفعل. والمعنى والله اعلم، وجدها حسبما توصل اليه نظره كانها تغرب في عين حمئة على حد قولك: كنت في البلدة الفلانية، فوجدت الشمس تغرب في البحر، وعليه فغروبها في عين حمئة مجاز، وكيف لا وقد تقدم في اقوال اهل السنة السليمة من الطعن، ان الشمس تعدل بالارض اضعافا مضاعفة. قال الرازي: وما قاله اهل الاخبار من ان الشمس تغرب حقيقة في عين من عيون الارض، فكلامه على خلاف اليقين، وكلام الله مبرأ من هذه التهمة. نقله في ‹الحصون الحميدة›

المبحث الثاني عشر

فيما يتعلق بحركة الارض وما ينشأ عنها

اقول: كل عاقل يعلم حال الارض، وما هي عليه من ترادف الازمنة، وتعاقب الفصول، واختلاف الليالي والايام، وفي الغالب يشعر بوجود السبب الذي هو القرب من الشمس والبعد عنها، بدون ما يتعرض لكيفية ذلك،

وغاية ما يعتقد ان الشمس تتدلى للارض تارة وترتفع عنها اخرى، وتشرق فيها تارة وتغيب عنها اخرى، ويخيل كل حركة للشمس بدون ما تشاركها الارض في شيء من ذلك، وهذا ما يتبادره الفكر العام، واني اقول: اذا تصورت الحركة في جرم الشمس الذي هو من اعظم العلويات فلا مانع من ان تتصور في الارض، والحالة انها صالحة لذلك.

والحاصل ان الارض لا تتغير ظروفها الزمانية من فصول وغيرها الا بتغير موقعها من الشمس، وهكذا يغير الله بها كلما غيرت بنفسها، فبحركتها وتكويرها تتعاقب قطع الزمان عليها، وبيان ذلك ان الارض لها حركتان (1) تعتبر نتيجتها حركة يومية سنوية فالحركة اليومية حركة تكوير، والحركة السنوية حركة مسير. وبحركة التكوير ينشأ الليل والنهار، ولهذا قال تعالى:

---

(1) وبذلك قال البعض من علماء الاسلام في القرن الثامن: كعضد الدين عبد الرحمان ابن احمد المتوفي سنة ستة وخمسين وسبعمائة جزم في كتابه المسمى بـ (المواقف) بان الارض كروية؛ لها حركة حول الشمس، واورد على ذلك اعتراضات، ثم كر عليها بالنقض والرد وجرى معه على ذلك شارحه العلامة (الشريف علي بن محمد الجرجاني) المتوفى سنة ستة عشر وثمانمائة، ووافقه على ذلك ايضا العلامة بهاء الدين العاملي في رسالته المسماة بتشريح الافلاك هـ من <<النخبة الازهرية>>.

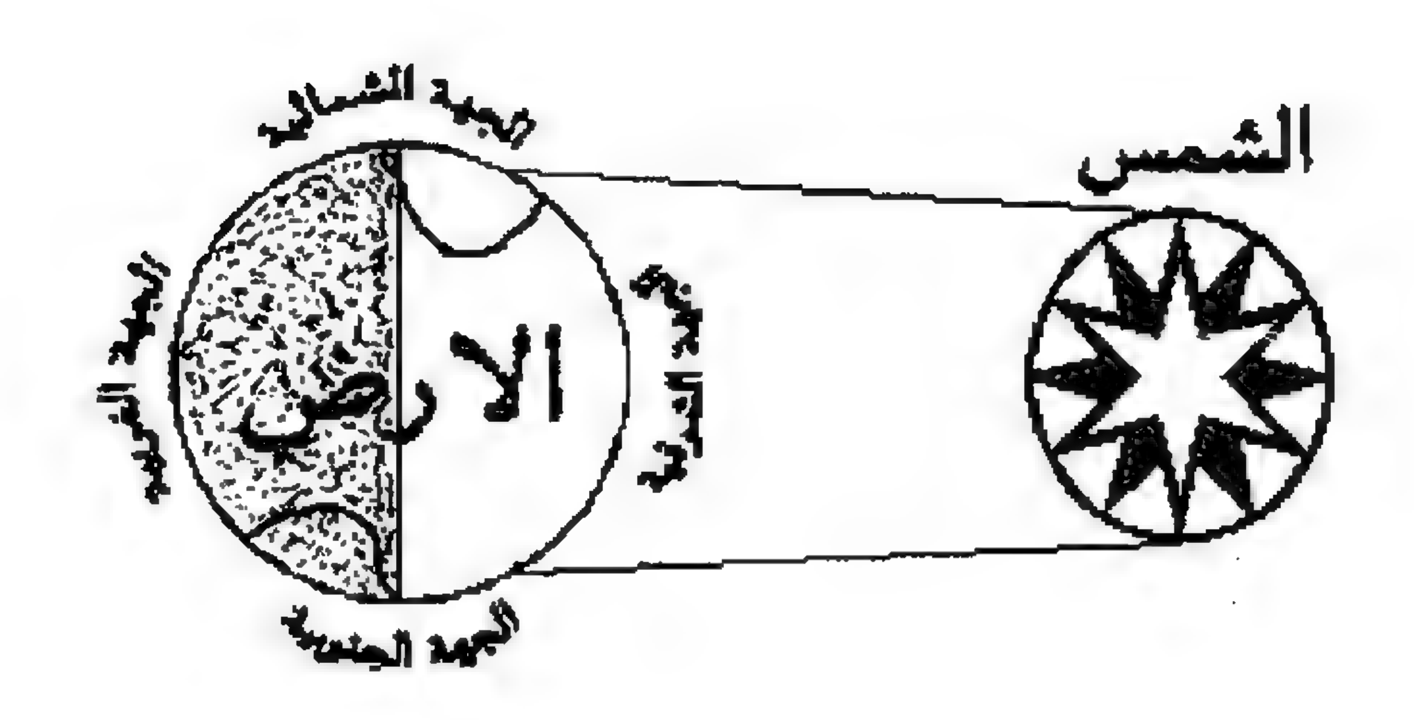
يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل، (1) فهي دائما بهذه الحركة بين ليل ونهار، اي فاحد شقيها ليل والآخر نهار. وهكذا (**لا شمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار، وكل في فلك يسبحون**) والتنوين في قوله «كل» يشهد بدخول الارض مع الشمس والقمر في الحكم المسلط عليها الذي هو السبح، لانه عوض عن مضاف اليه يقدر جمعا اي كلهم (2) وبهذا التقدير تدخل الارض في حيز المقدر، ويعود الضمير على مذكور من طريق المجاز المرسل، فيما يتعلق بالارض اي من باب ذكر الشيء وارادة محله بقرينه، لان السبح لا يتصور في الليل والنهار لانتفاء جوهرتيهما، انما هو متعلق بالارض التي هي محل لهما، والداعي لتقدير المضاف اليه جمعا هو قوله (يسبحون). اذ لو كان المحذوف ضمير تثنية بمعنى مختص بالشمس والقمر لقال يسبحان او يسبح باسقاط ضمير الجمع مع انه لا مانع ان قلنا بحركة الارض، ولنرسم لك هيئتها مع مقابلة الشمس لها على سبيل

---

(1) اوليس هذا صريح في كروية الارض والا فكيف يتأتى تكوير الليل على النهار والنهار على الليل لو لم يكن المحل كرويا فليتأمل.

(2) وعلى هذا جرى صاحب (الكشاف) وغيره من علماء الاسلام.

التقريب ليسهل عليك تلقي ما ذكرناه من تكوير الارض بي الليل والنهار، وكيف تتعاقب عليها الفصول:



فهذه حالتها: فالشمس دائما آخذة بشق من الارض من الجنوب الى الشمال، فهي مقسومة بين ليل ونهار، وهكذا يكور الليل على النهار بتكوير الارض امام الشمس، ومقسومة من وسطها حسب خط الاستواء بين فصلين، اما بين الصيف والشتاء، واما بين الربيع والخريف. والمعنى اذا كان الصيف في الجهة الشمالية التي هي النصف الاعلى منها، يكون الشتاء في الجهة الجنوبية، وهي النصف الاسفل من الارض، واذا كان الخريف في الجهة الشمالية، يكون الربيع في الجنوب. واما خط الاستواء فلا تتغير فيه الاحوال غالبا لكونه

مقابلا للشمس دائما ، وسبب ذلك ان الارض في سيرها تميل احيانا وتستقيم احيانا ، فاذا مالت الى الشمس بالجهة الشمالية ، كما هي مرسومة امامك ، تظهر الشمس لجهة الشمال اكثر منها في الجنوب ، وتبقى كذلك الى منتهى الفصل . اي ثلاثة اشهر ، وتكون الشمس فيها في غاية الحرارة ، كما تكون متباعدة عن الجهة الجنوبية ، وتكون في غاية البرودة . وهاته الصورة هي التي يكون فيها الصيف في جهة الشمال ، والشتاء في جهة الجنوب . ثم تعدل الارض ، اي تستقيم امام الشمس في سيرها ، فتأخذ الشمس في شقها من الجنوب الى الشمال خطا مستويا ، ويحدث الخريف في جهة الشمال ، والربيع من جهة الجنوب ، ويستوي الليل والنهار ، الى ان تتم ثلاثة اشهر ، فتاخذ كعادتها في الميل بالتدريج الى ان تتأخر الجهة الشمالية عن الشمس ، وتبرز لها من جهة الجنوب ، فيقع الصيف فيها والشتاء في الشمال . وهكذا الى ان يتم الفصل فتستقيم ، فيكون الربيع في جهة الشمال ، والخريف في جهة الجنوب ، وتتم دائرة الفلك السنوية التي هي ثلاثمائة وخمسة وستون يوما . وهذا من جهة حركة المسير (1) .

---

(1) وعلى هذا فتغير الفصول هو واقع من تغير اوضاع الارض من الشمس . قال في «النخبة» تكون الارض في اثناء حركاتها السنوية في اربعة .

واما حركة التكوير المسماة بالحركة اليومية ، فانها تتم في اربع وعشرين ساعة ما بين ليل ونهار ، لان الارض مع ميلانها تارة واستقامتها اخرى تدور في نفسها دور الرحى ، ومن كان على ظهرها يكشف على جرم (2)

..اوضاع متمايزة عن بعضها ، فتكون في فصل الشتاء فوق الشمس بقدر ثلاث وعشرين درجة ونصف ، وفي فصل الربيع تكون في مساواتها تماما ، وفي فصل الصيف تكون في اسفلها بقدر ثلاث وعشرين درجة ونصف ، وفي فصل الخريف ترتفع حتى تصير في مساواتها ، ثم ترتفع وتنخفض اثناء سيرها من صعود الى هبوط ، وبالعكس مارة في الاوضاع السالفة الذكر ، وهذه الاوضاع المختلفة تحدث حتما تغيرا كبيرا في درجة الحرارة الساقطة على الارض ، ومن هنا تنتج الفصول الاربعة .

(2) واما عبارة الشريف (علي بن محمد الجرجاني) المتوفي سنة ثمانمائة وستة عشر مع عبارة صاحب الاصل «عضد الدين عبد الرحمان ابن احمد» المتوفي سنة ستة وخمسين وسبعمائة هكذا: وقيل انها (يعني الارض) تدور على مركز نفسها من المغرب الى المشرق ، خلاف الحركة اليومية للفلك التي اعتقدها الجمهور ، والحركة اليومية لا توجد ، وانما تتخيل بحركة الارض ان يتبدل الوضع من الفلك بالقياس الينا (دون اجزاء الارض) ان لا يتغير الوضع بيننا وبينها ، فاننا على جزء معين منها فاذا تحركت من المغرب الى المشرق ظهر علينا من جانب المشرق كواكب كانت مختفية عنا بحدبة الارض ، وخفي عنا بحدبتها من جانب المغرب كواكب كانت ظاهرة علينا ، فيظن ان الارض ساكنة ، والمتحرك هو الفلك ، وليس كذلك ، بل ليس ثمت فلك اطلس ، وذلك كراكب السفينة يرى السفينة ساكنة مع حركاتها حيث لا يتبدل وضع اجزائها منه ، والشط متحركا مع سكونه ، حيث يتبدل وضعه ، مع ظن انه ساكن . وكذلك يرى القمر سائرا الى جهة الغيم حين يسير الغيم اليه ، وغيره من امور قدمناها في غلط الحس اهـ .

الشمس كلما مرت جهته بالشمس، ويظهر له ان الشمس قدْ طلعت عليه ولم يشعر بدوران الارض لخفائه، ومثله كمن ركب سفينة لا يشعر بسيره اذا كان في الاسفل، الا اذا رفع رأسه الى الخارج، او نقول كمن ركب العربة اي القطار الحديدي، يرى الجبال تمر مر السحاب، وهو مستقر، والمخيل لحركة الجبال حركة مركبة، وهكذا حال من على الارض، يرى سائر الاجرام السماوية سائرة، من شموس وكواكب واقمار، والارض هامدة مع ان لها حقا في المسير، فما في الوجود مستقر (**وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر**

... وما ذكرنا هذا الا لنعلم ان علماء الاسلام، قالوا بحركة الارض قبل ان تقول به علماء اروبا، لان (عضد الدين) المذكور قد كان توفي في وسط القرن الثامن من الهجرة الموافق للقرن الرابع عشر المسيحي، وفي ذلك التاريخ لم يكن في اروبا من يقول بحركة الارض، انما قيل بذلك في القرن السادس عشر لما ظهر المسمى (كوبور نيكوس) ببلاد بولونيا فقدر ان الشمس مركز، والارض وما عداها من الاجرام السماوية تدور حولها وايد طريقته هذه بتطبيقها على القواعد الرياضية، واتبع على هذا القول وشاع معتقده في اوروبا وان كانت كنيسة رومة حكمت عليه وعلى من يقول بقوله بالزيغ والضلال.

نعم، قد قيل بحركة الارض قبل الميلاد بخمسة قرون، وكان القائل به يسمى «فيثاغوروس» ثم اندرست طريقته قبل الميلاد بنحو المائة واربعين سنة لما ظهر بطليموس فقدر ان الارض ثابتة، والشمس تدور حولها فشاعت طريقته وانتسب الطريقة الاولى.

السحاب) اي يوم يكشف عنك غطاؤك ترى الجبال التي كنت تحسبها جامدة، والحال انها «**تمر مر السحاب**» (**صنع** (1) **الله الذي اتقن كل شيء**).

وعليه فالدورة المسماة بالحركة اليومية، تستلزم وجود سائر الاوقات على وجه الارض في آن واحد، لان الشمس لم تزل ظاهرة والارض تدور امامها دور الرحى كما تقدم، والجهة المقابلة لها في ضياء تام والاخرى بعكسها، وكلما دارت الا والنهار يطرأ على الليل فيدمغه من جهة، والليل ينعطف عليه من الاخرى، وكل آخذ بشق من الارض الى منتهى الزمان، وبهذه الكيفية توجد كل الاوقات على وجه الارض، كما تقدم من الطلوع الى الغروب، كذلك من الغروب الى الطلوع فمهما كان الطلوع في ناحية كان الغروب في مقابلها، والزوال من جهة، والسحر من الاخرى، وهكذا فيما بين ذلك من الساعات والدقائق ليلا ونهارا. ولنرسم لك هيئة

---

(1) وفي ظني ان هذا صريح في حركة الارض خلافا لما جرى عليه بعض المفسرين من ان الجبال يوم القيامة يبيدها تعالى فتراها تمر مر السحاب اذ لو كان المراد منه ذلك لاعقب الآية بكقوله قهر الله الذي يمحق كل شيء او ما في معنى هذا بدل ان يقول صنع الله الذي اتقن كل شيء. فاتضح ضرورة ان المرور هو من تمام الاتقان اي غاية في الصنع فهو ابعد من ان يعد من جملة التخريب والدمار.

الدائرة حسب منطقة الاستواء، مع الاقطار المحاذية لذلك، باعتبار المقابلة، لتعرف تقريبا اذا كان الليل في جهة، يكون النهار في الاخرى، مع وجود سائر الاوقات الليلية والنهارية، لان النهار موجود في شق من الارض بجميع اوقاته، وينسحب على الليل، والليل يتخيل عنه وينعطف عليه بما فيه من الجهة الاخرى. وهذا بقطع النظر عن الجانب الاعلى والاسفل منها، اي ما يقابل القطب الشمالي، وما يقابل القطب الجنوبي. واما هما فلا يوجد فيهما ما تقدم من التغير في الاوقات، لان الارض اذا مالت بجهة الشمال الى الشمس كما هي مرسومة تظهر الشمس على نقطة العلو منها، وتبقى ظاهرة كيفما دارت الارض لضيق المنطقة العلوية الى منتهى الصيف، ولما تعتدل تدخل النقطة في الحكم المتقدم من وجهة، واذا مالت الارض، اي برزت لجهة الجنوب الى الشمس تحتجب الشمس عما يقابل النقطة الشمالية وتبقى ظاهرة في النقطة الجنوبية ثلاثة اشهر كما تقدم. وعليه فتكون مدة الليل والنهار فيما يقابل القطبين ثلاثة (1) اشهر ليلا، وثلاثة اشهر نهارا. وهذا

---

(1) وقيل: ان هذا يكون في ضيق المنطقة من الارض، والا فالنقطة نفسها تكون ستة اشهر نهارا، وستة اشهر ليلا. وقد ذكر صاحب «النخبة» ما نصه: انه كلما اقترب الانسان من القطب طال امد الليل والنهار، بحيث ان.

باعتبار الصيف والشتاء . واما في الاعتدال فتتغير الهيئة ، الا انها على خلاف القاعدة المتقدمة ، فالليل يكون فيما

..السنة في الاقاليم الغربية من القطب نهار وليلة فيبقى النهار نهارا مدة ستة اشهر متوالية تظهر فيها الشمس وراء الافق (لا فوق الافق) وهو فصل الصيف وتبقى الليلة ليلا ستة اشهر اخرى لا تظهر فيها الشمس البتة حتى ان من يمر عليه ذلك الليل لاول مرة لا يملك نفسه من الرعب، وترى الحيوانات في هاته البلاد تظهر عليها امارات الخوف من هول الظلام وتختلف درجة البرودة شتاء في الاقطار القطبية بين ثلاثين وستين درجة تحت الصفر، وفي الصيف - واذا شئت فقل في النهار- لا تزيد درجة الحرارة في شهر يونيه ويليو عن ستة عشر وثمانية درجة فوق الصفر، وتهب في الصيف رياح شديدة بهاذه الاصقاع، ويرى البحر فيها لكثرة الثلوج ذى بياض ناصع وسطح مستو، على ان سطحه مغطى بقطع ضخمة من الثلوج مختلفة الحجم والشكل، وترى الثلوج ضالة في ذلك اليم فاحيانا تنفصل اجزاء واحيانا تتصل فتلتحم فيكون لها شكل غريب، فمنها ما هو على شكل جبال بمفاوزها ومضائقها ووديانها وقممها ، ومنها ما على شكل سهول واسعة لامعة ، واذا اتى الصيف تقسمت هذه الثلوج واخذت تسبح في البحار منقادة لفعل الرياح والتيارات، وقد يبلغ سطح بعض هذه الثلوج مئات من الكيلومترات المربعة، وارتفاعها ما ينوف عن مائة متر، وحجمها جملة مليارات من الامتار المكعبة، ويضطرها ثقلها ان تنغطس في الماء وقد يكون المختفي منها فيه ثلاثة امثال ما على ظاهره، وتاتي الرياح والتيار بهذه الجبال الثلجية الى بلاد المنطقة المعتدلة، فيشاهدها سكان الارض الجديدة بامريكا خمسة واربعين درجة، وغيرهم. وليس البحر وحده مغطى بالثلوج في هذه الاصقاع، بل الارض ايضا .فلا يبقى الماء فيها الا نادرا على الحالة السائلة، وقد تاتي الرياح مشبعة ببخار الماء من البحار فلا تلبث ان تهب على هذه الاسقاع القطبية حتى يتكاثف بخارها ، ويتساقط على الارض كنديف القطن، فيجتمع ويستحيل جليدا ، ومن عجائب الطبيعة في هذه الاقطار ان في ليلها تلطف حاستا السمع والبصر، فتظهر للعين مناظر غريبة : كسراب والاهلة والشموس والاقمار الكاذبة ، والشفق الشمالي العظيم، وليس هو بشفق، انه اثر تكسر النور البعيد على قطع الثلوج السابحة في الفضاء وانعكاسه عنها ، ويكون لهذا الشفق اشكال جميلة مختلفة ، وذات الوان بهجة ، فيظهر كانه زينة في الافق، او باب من نور فتح في السماء ، فتزيد قوة المسموعات ايضا ، فاذا سقط حجر مثلا كان له....

يقرب من النقطة، في بعض الازمنة ساعة ونصف تقريبا. وبالجملة فان الفجر يطلع قبل مغيب الشفق، وفي سكان هاته البقاع اختلف العلماء في وجوب صلاة العشاء عليهم، فمنهم من قال بعدم الوجوب، لعدم وجود الوقت الذي هو شرط في صحة الصلاة، وفي جوبها ايضا. ومثل هذا يقع في النهار، وهذه هيئة الارض حسبما قدمناه مع رسم الاربع والعشرين ساعة بين ليل ونهار. فتأمل وجود هاته الدائرة ليسهل عليك تناول ما ذكرناه:



...صوت كصوت المدفع، واذا تكلم انسان سمع صوته وفهم كلامه على مسافة الف مترا، وليس في تلك الاقطار ابهج من شروق الشمس والقمر، فتظهر انوار الشمس اولا شفقا ثم تتعاظم بالتدريج ولا تعلو الافق بل تدور حوله. واما القمر فيظهر ضعيف النور ثم يحمر ثم ينجلي ويسطع نوره حتى يستطيع الانسان ان يرى على مسافة كيلومتر ويحتفل سكان هاته الاصقاع بظهور الشمس؛ فيوقدون لها النيران ويقيمون الاعياد.

وهذا باعتبار ما يحاذي خط الاستواء، واما ما سوى ذلك فلا يستوي فيه الليل والنهار كما ترى، ومن جهة وجود الليل والنهار على ظهر البسيطة في آن واحد هو قول الجمهور من علمائنا. ومن ذلك ما ذكره (امام الحرمين) حيث قال: لا خلاف في ان الشمس تغيب عن قوم وتشرق عند آخرين. والليل يطول عند قوم ويقصر عند آخرين. وعند خط الاستواء يكون الليل والنهار مستويين، والارض مدورة. والله اعلم بما وراء ذلك.

المبحث الثالث عشر

فيما يتعلق بالسماء من حيث ذاتها

اقول: ان السماء هي جسم موجود في صورة مفقود (1) من اجل صفائها وشدة لطافتها. والمعنى انها لا تتوصل اليها الابصار، فمادتها تقرب من مادة الهواء، وبهذا جاء التنزيل قال تعالى: **وهي دخان**، ومن المعلوم

(1) ولهذا توهم بعض العصريين ان السماء لا وجود لها، وهذا بناء على ما كان يظنه في السابق من كثافتها.

ان الدخان الاصلي صفاء لا كدر فيه، لخلوه من الاجزاء الارضية. يماثله البخار المتصاعد عن الماء بتسليط النار عليه، وقول (ابن عباس) في هذا المعنى يشهد بذلك نقله (النسفي) فلهذا كان يقاوم الاجرام العظيمة من ان تزول وطبيعة البخار الفرعي تشهد بذلك حيث انه يقاوم الاجرام، ويحرك السفن العظام، وعلى هاته الكيفية تكون السماء غير مرئية لنا من شدة الصفاء وبعد المسافة، انما (1) المرئي لنا ما حازه البصر من الفراغ الموهوم، ومن علمائنا من يقول بذلك (كالقاضي ابي بكر بن العربي) وغيره انه قال: ان السماء غير مرئية لنا ، وتأول النص الذي ظاهره الرؤية الى ان قال: ولا يلزم من عدم رؤيتها عدم وجودها كما هي القاعدة المسلمة من انه لا يلزم من عدم الوجود انعدام الوجود. نقله في (الحصون الحميدية).

ومما يدلك على صفاء السماء وشدة لطافتها ، هو ما نراه من الاجرام العلوية كالشمس وغيرها ، اذ لو كانت السماء كثيفة لمنعتنا نور الكواكب، كما يمنعنا من ذلك

---

(1) اما الزروقة التي تظهر به السماء، فان الضوء يتشتت جزء منه عند اصطدامه بجزئيات الهواء، ولكن اللون الازرق وشبه الازرق اكثر تشتتا بالهواء، ومن اجل هذا تظهر السماء لنا نهارا ، وفي الصحو زرقاء.

وجود الغيم مع ان الغيم اخف من غيره، فكيف بذات السماء اذ لو كانت كثيفة مع مالها من المساحة غلظا فمن المعلوم تمنعنا السماء الاولى من رؤية ما في السماء الثانية، واحرى ما في غيرها من بقية السموات، والحالة اننا نرى ما في الكرسي كالثريا، وغيرها التي بعدت مسافتها الى غاية لاتحتمل التحديد، وكل هذا يدل على خفة السماء بحيث صار وجودها لا يعد حائلا .

واما ما اورده اهل القصص من كون السموات احداهن ذهبا والاخرى فضة الى آخره، فهو مؤول ان صح نقله عن النبي، وفي الغالب يجري على طريق المجاز المرسل، فيكون من اطلاق المحل وارادة الحال فيه، وهو الجرم المختص بذلك السماء، كزحل مثلا، فتكون ذاته من ذهب او فضة بدل التراب في ارضنا . واذا لم يصح نقله عن معصوم فلا يلتفت اليه لمباينته للنقل الدال على ان السماء من دخان، والعقل شاهد بلطافتها حسبما قدمناه .

ثم نقول: ان السماء تكون سماء بنسبتها لمن تحتها ان صورت التحتية، فكل ما علاك فهو سماؤك . واما بنسبتة للجرم المستقر فيه فهو فلك . وبهذا الاعتبار تكون السموات السبع عبارة عن ممر السيارات السبع اي طريقها المرسومة الممسكة لها من ان تزول حالة

السير، **(لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر)** فكل في طريقه قال تعالى: **ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق**، وهي ممر الكواكب كما قدمناه.

والطريق لا تختص بالفوق كما انها لا تختص بالتحت، انما ذكرت الفوقية باعتبار تعلق البصر بها كما قدمناه من ان الافلاك محيطة ببعضها، والسماء لا تختص بجهة دون غيرها، وسائر الاجرام تسبح في افلاكها، فمن دقق النظر يجد الارض وغيرها من العلويات في غاية الانقلاب، وتبديل المنازل، وكيف لا وانت ترى ان زحل اذا غرب يمر اسفل الارض مع انه في السماء السابعة، فاين تكون الارض في نظر من كان في جرم زحل مثلا ؟ وقد قدمنا ما يتعلق بهذا المقام.

وبالجملة فان الاجرام المتقدمة في الذكر لا تختص بفوق ولا بتحت، انما التقيد واقع في نظرنا، وفي نفس الامر لا يتصور، لان الفوق هو فوق بنسبة لمن تحته لا لمن فوقه، ولكل فوق فوق كما لكل تحت تحت، ولا تحت ولا فوق. وفي ذلك قلت:

فان قلت فوق الفوق فالتحت فوقـــه

وان قلت تحت التحت فالفوق تــحته

وما الفوق الا التحت والتحت فوقــه

والفوق ان كان التحت فما الذي تحته

المبحث الرابع عشر

فيما يتعلق بالقمر من حيث ذاته وحركته

اقول:ان القمر يتعلق به الكلام من وجوه كثيرة بعضها اقرب للفهم من بعض، والمتعذر من ذلك ما يتعلق بحركته ونقصانه وزيادته، واما ما يتعلق بذاته من كونه جرما كثيفا، وان ضياءه مكتسب من الشمس عند المقابلة، فلا يبعد عن الادراك لمن تأمله، ومن جهة ما يتعلق بحجمه قيل:انه اصغر من الارض بنحو تسعة واربعين جزءا وهو اقرب الينا من الشمس بنحو اربعمائة مرة تقريبا .

ومن المعلوم ان القمر هو جرم كثيف مظلم، وان نوره مكتسب من نور الشمس كغيره من الكواكب السيارة، واذا ثبتت كثافته فلا مانع من مشابهته الارض في صلابته، ان لم نقل هو قطعة انفصلت عنها حسبما قيل.

نعم، قد ثبت فيما قدمناه ما يدل على اجتماع سائر الاجرام في اول النشأة وعليه فلزم انفصال البعض عن البعض، والشاهد قوله تعالى: **كانتا رتقا ففتقناهما** . وعليه فلا مستنكر في كونه منفصلا عن الارض حيث ثبت الاتصال.

والملخص من هذا ان القمر تقرب هيئته من الارض من جهة الصلابة وغير ذلك، والمعنى انه قطعة معدنية تخالالها مياه (1) جاء في اقوال اهل السنة ما يدل على ان نور القمر مكتسب من نور الشمس، واذا كان كذلك لزم ان يكون في ذات القمر ما يقبل صورة الضياء، ولا ارى في المحسوسات ما يمثل النور مثل الماء. فلهذا يظهر القمر عندنا مضيئا عند مقابلة الشمس له مثل المرآة الصقيلة، بسبب ان جرم القمر اكثره مغموس في الماء كما في ارضنا، ولم يبق يظهر من اليابس الا شيء قليل نراه سوادا في جرم القمر ليلة البدر، لان اليابس لا يقبل صورة الضياء كما يقبلها الماء. وعلى كل فهو مختف في الاكثر، واذا ثبت ما قدمناه من كونه جرما كثيفا ذا بر وبحر، فلا مانع من انه مسكون، والحالة انه صالح لذلك، وكيف لا وحكمته تعالى ان يكون كل مكان مسكونا حسبما يشهد به الحس، ولم تستبعده العقول. جاء في حديث ما معناه :**وطئت السماء وحق لها ان توطأ، ما من موضع قدم الا وفيه ملك ساجد او راكع**، او كما قال عليه الصلاة والسلام.

---

(1) دلت الاكتشافات الحديثة على عدم وجود الماء فوق سطح القمر وانعدام الحياة فيه.

والقمر من الامكنة التي تطلب من يقوم فيها بعبوديته تعالى، وقد ذكرنا فيما تقدم من كلام سيدي (محي الدين بن العربي) ان جميع الشموس والاقمار مراكب لخلق الله، الى ان قال: منهم ملوك وامراء، وكل ملك لا ينظر في احوال رعيته ويمشي بينهم بالعدل يستوجب العزل، وعليه فلا نستبعد كون القمر مستقرا لخلق الله عز وجل، فقدرته تعالى صالحة، وحكمته باهرة، وليس فيما ذكرناه الا ما يدل على عظيم سلطانه الموجود في كل شيء شيء.

ثم اقول: ان جرم القمر كانت هيئته تقرب من هيأة الارض من وجوه، فانها تباينه من وجوه اخرى، فمزاج اهل القمر غير موافق لامزجة اهل الارض، فالارض اكمل منه في عدة وجوه، حتى لو فرضنا من ينتقل من الارض الى جرم القمر لا يجد ما يوافقه في طبعه، فالمحل محل عذاب بنسبته لنا، وفي الغالب تنعدم بنيته لكون مقابلة القمر للشمس ليست على هيئة مقابلة الارض لها لعدم دوران القمر في نفسه، فالشمس تظهر في شق القمر نصف شهر، ثم تغيب عنه الى الشق الآخر، وتكون مدة الشهر عندنا بمنزلة السنة عند اهل القمر مقسومة بين صيف وشتاء لا غير، فمدة النهار عندهم التي هي اربعة عشر يوما وبعض يوم تكون

صيفا ، وهكذا مدة الليل ، وتكون شتاء ، فالشمس تغيب عن احد شقيها اربعة عشر يوما وبعض يوم ، الا ان ذلك الشق المظلم يكون قريبا من النهار عندنا في الضياء بسبب ما يشرق عليه من نور الارض عند مقابلتها للشمس ، وعليه فتكون الارض عند اهل القمر بمنزلة القمر عندنا ، الا ان نور الارض اعظم من نور القمر بسبب كبر الجرم بنسبتها للقمر ، فانها تعدل بها نحو الخمسين مرة على سبيل التقريب ، وعليه فالارض تظهر لاهل القمر مثل القبة في غاية الاستنارة .

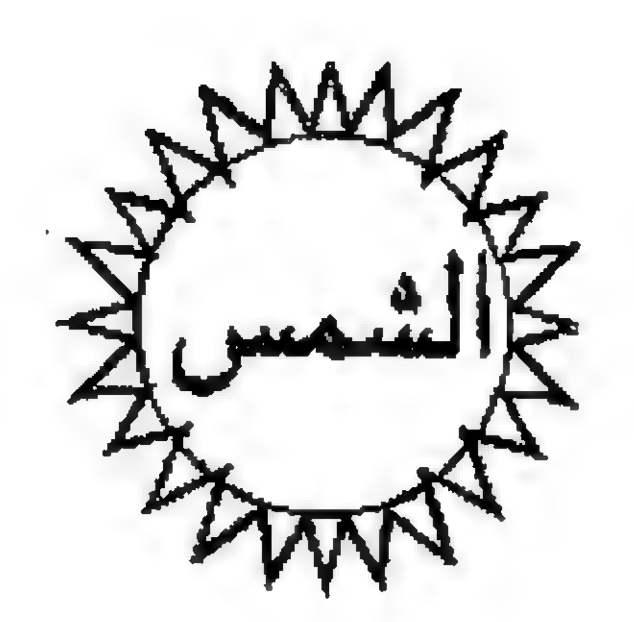
وقد قدمنا في (المبحث الثامن) ما يدل على ان الارض تظهر لمن هو في الخارج كما يظهر القمر عندنا ، واذا اردت ان ترى كيفية ظهور الارض بضيائها على نصف القمر المظلم ، فانظر لاول الشهر عند الغروب فتجد الشمس شارقة في نصف القمر المقابل لجهة الشمال ، ويظهر لنا من ذلك الشق القدر المسمى بالهلال ، واكثر الضياء غائبا في الاعلى منه ، وفي ذلك الشق يكون النهار لاهل القمر ، والشق الاخر المقابل لنا يظهر بضياء تتم به دائرة الهلال ، فيقال ان الهلال رأيناه بالدائرة ، فذلك للضياء الخفيف يكون بسبب مقابلة الارض له ، وعلى هذا فان الارض تشرق على القمر من جهة ، والقمر يشرق على الارض من الاخرى .

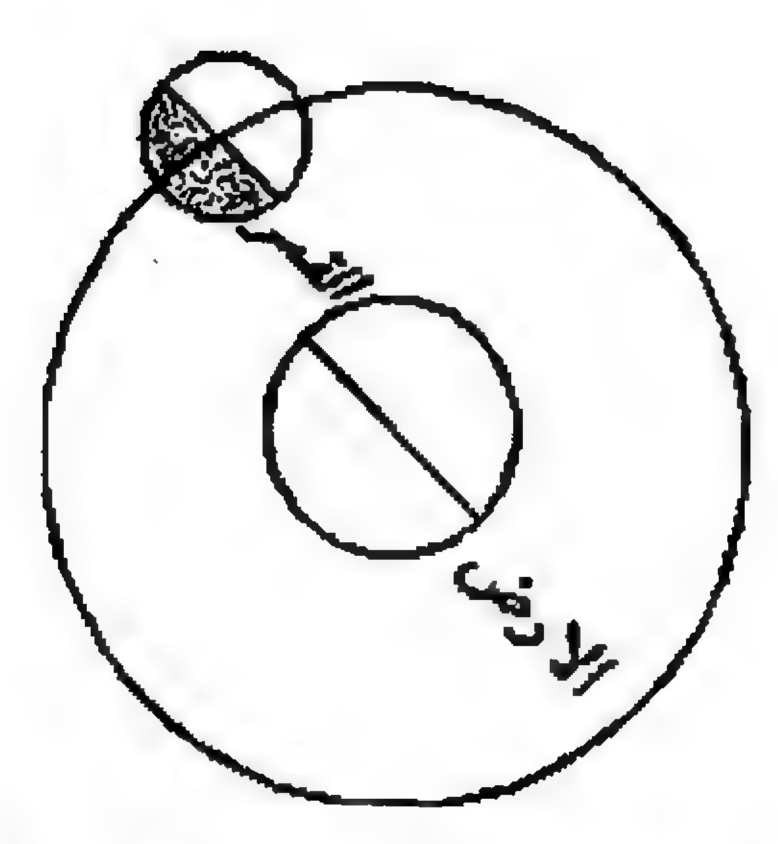
ثم اقول: ان جرم القمر هو كروي اي مستدير كما نراه ليلة البدر، ونراه ايضا اول الشهر حسبما قدمناه، والشمس دائما شارقة في النصف منه كما هو في ارضنا، وسبب نقصانه وزيادته في نظرنا عدم ادراكنا الشق المقابل للشمس في بعض الاحيان، لان القمر يكون قريبا من الشمس في اول الشهر، وظهور الشمس يكون في الشق المقابل لجهة الشمال يميل للعلو، ولم يمكن لنا ادراك ما ظهرت فيه الشمس الا القدر المسمى بالهلال، كما قدمناه، وما دام القمر ينفصل عن الشمس الى جهة المشرق الا والابصار تتوصل الى ما تعذر عليها من قبل، وهكذا يزيد الهلال في نظرنا كلما تباعد عن الشمس الى ان يحصل البعد التام بينهما، وذلك اذا كان القمر بالمشرق، عندما تكون الشمس بالمغرب، والارض بين ذلك، فتكشف حينئذ على الشق المضيء من القمر بتمامه، وهي ليلة البدر عندنا، ولما يصير القمر يقرب من الشمس من الجهة الاخرى لتتم دائرة الفلك، ياخذ الضياء عندنا في الاحتجاب على التدريج الى ان ينتقل الى النصف الاعلى منها، فلا يمكن لنا ادراكه الا القدر المسمى بالهلال آخر الشهر ايضا، وذلك ان الشمس تطلع في آخر الشهر مقرونة بالهلال، ويكون الشق المقابل منه الى الشمس محتجبا علينا حسبما قدمناه في اول الشهر

الى ان ينتقل كل الضياء الى جهة العلو من القمر، ولما يأخذ في الانفصال عن الشمس يظهر لنا شيء من الضياء حسبما قدمناه، وهكذا حكمة الله فيه من حيث نقصانه وزيادته.

واما ما يتعلق به من جهة حركته التي هي دورته بالارض، فنقول: هي الحركة المعتبرة وان كانت له حركة اخرى يتبع بها الارض في سيرها فلا نتعرض لها لعدم التوقف عليها من حيث الزيادة والنقصان وغير ذلك، ففلكه المعتبر هو دورته بالارض، ويقطع هاته الدورة في ثمانية وعشرين يوما ونصف يوم، وهاته المدة هي المسماة بالشهر، ولنرسم لك الهيأة المجتمعة بين الشمس والقمر وجرم الارض، ليسهل عليك تناول ما قدمناه من اسباب نقصان الهلال وزيادته:







فمن كان في آخر الشق المظلم من الارض مثلا ، فلا يمكنه ان يدرك من شق القمر المقابل للشمس الا قدر الهلال ، بسبب عدم استقباله له استقبالا كليا ، بخلاف ما اذا انتقل القمر الى نصف الدائرة الفلكية ، فتحصل المقابلة الكلية بين الاجرام الثلاثة ، ويتمكن للرائي ان يرى الشق المضيء بتمامه . وهكذا الى ان ينعطف القمر من جهة الشرق الى المغرب ، فياخذ ذلك الشق المضيء في الاحتجاب ، ويتعذر ادراكه كما وقع في اول الشهر .

ثم اعلم ان سير القمر هو من المغرب الى المشرق دائما ، قاصدا الصعود الى قبة السماء ، الى ان يتم نصف الدائرة من الفلك في اربعة عشر يوما وبعض يوم ، كما

تقدم. فياخذ في الانعطاف على الشمس من جهة المشرق بتدريج، الى ان ينطوي في شعاع الشمس فتتم دائرة الفلك. ولما ينفصل عنها من جهة المغرب الى المشرق، فيظهر لنا ذلك القدر المضيء عند الغروب حسبما تقدم. وعليه فسير القمر هو على عكس ما يتعلق به البصر العمومي. لان الرؤية العامة تدرك انتقال القمر من المشرق الى المغرب. وان دورته بالارض تتم في يوم وليلة، والحالة ان الهياة الحاصلة فيما تعلق به البصر متوقعة من دوران الارض كما تقدم حول الشمس، فكلما دارت الارض دورتها اليومية، يكشف اهل منكبها الغربي مثلا على جرم القمر، حالة قربه من الشمس. فلا يدركون منه الا قدرا يسيرا، وفي الدورة الثانية يتمكن ادراك ما تعذر بالامس بسبب انتقال القمر الى درجة ثانية، وهكذا كلما انتقل، الى ان يصل الى نصف الدائرة من الفلك.

واما غروبه في كل ليلة فهو واقع من التفات الارض عنه، الى جهة اخرى، فمن كان في تلك الجهة يظهر له الهلال قد مال الى جهة الغرب، مع انه هو الذي مال عنه الى جهة اخرى. واما الهلال دائما قاصدا الصعود، كما تقدم. وقدر مسيره بين يوم وليلة هو ذلك الانتقال المرئي لنا، اي القدر الذي نجده تباعد به عن الدرجة

التي كان فيها بالامس. وعليه فالقمر دائما مقابل للارض، كما هو في الشمس، وان سكان مناكب الارض يكشفون عنه تارة، ويحتجب عنهم اخرى، كلما مرت جهتهم بجرمه، ولنعتبر دوران الارض في نفسها من اليمين الى الشمال، والمعنى لا يحصل الا بتدقيق النظر، مع استحضار الهيئة الحسية في الفكر. والا فالامس معتذر ادراكه بداهة. ولهذا قال تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: **يسألونك عن الاهلة قل هي مواقيت للناس والحج**. فكان الجواب على غير مقتضى سؤال السائل، وهو انفع له، لان الجواب عن سبب نقصان الهلال وزيادته يستغرق اوقاتا كثيرة، وفيه ما يثير في الفكر اضطرابا، ووظيفته عليه الصلاة والسلام ان لا يتكلم الا بما يقتضيه المقام. والاجوبة تختلف باختلاف احوال السائل. قال تعالى: **ويسألونك عن الروح قل الروح من امر ربي وما اوتيتم من العلم الا قليلا**. فرحمته عليه الصلاة والسلام بالسائلين اجمل، لان جوابه اما ان يكون حجة للسامعين او عليهم، لان التردد فيه يعد كفرا، حفظنا الله والمسلمين.

المبحث الخامس عشر

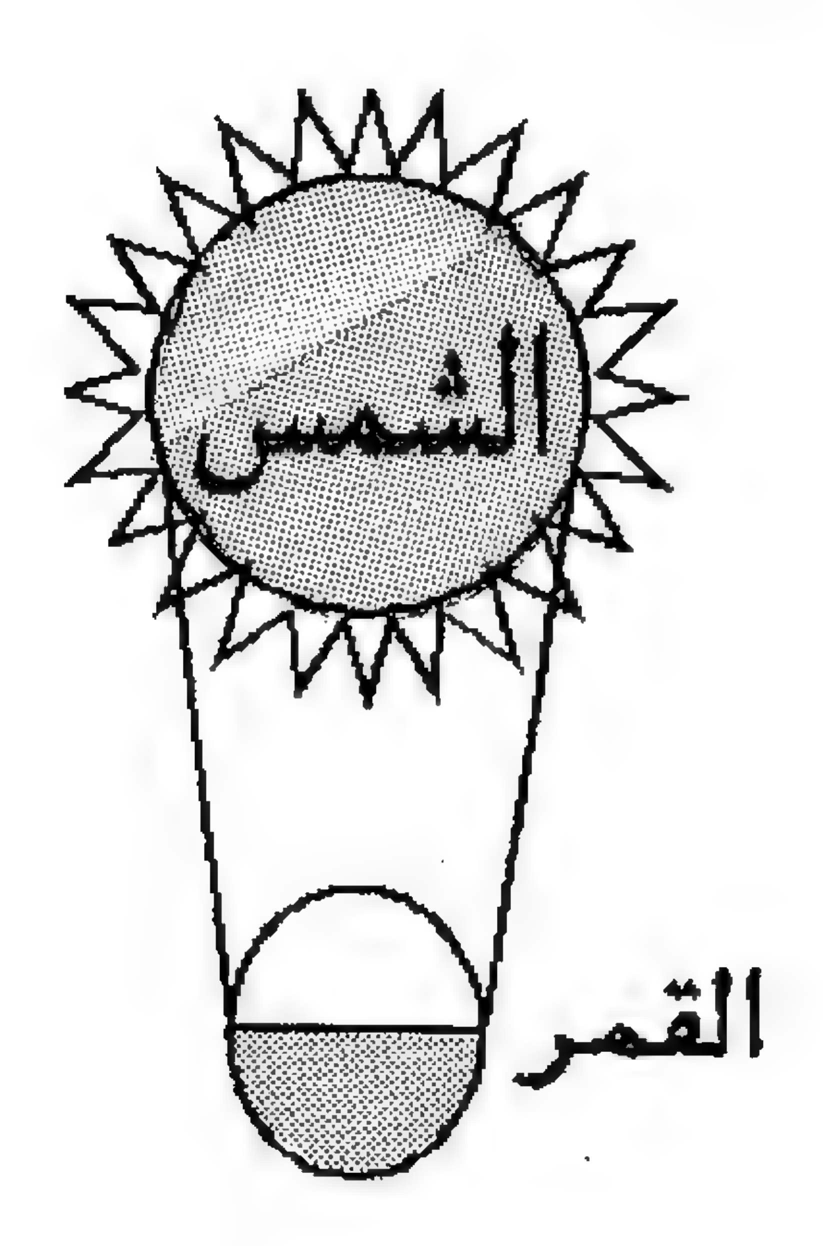
فيما يتعلق بسبب الخسوف والكسوف

اقول: ان الخسوف والكسوف هما من الامور العادية حسبما دل عليه التكرر، وليس في ذلك ما يرجع الى ذات القمر، ولا الى ذات الشمس، بمعنى يغير حقيقتهما، او يثير نقصانا فيهما حسبما يتبادر في الفهم القاصر، فالشمس منذ خلقت لم ينقص شيء من نورها، وانطماسها مؤخر الى يوم تطوى فيه السماء بما فيها، وعليه فاستتار نور الشمس هو واقع في نظرنا (1) وسببه حلول القمر بيننا وبين الشمس، وقد تقدم فيما مضى ما يدل على ان جرم القمر يماثل جرم الارض في الكثافة، ومن المعلوم ان القمر يمر اسفل الشمس في سيرها، وفي آخر الشهر تباشر المادة الواصلة من عين الشمس الى جرم الارض، ولهذا ينطوي الهلال في شعاع الشمس قدر يوم او اكثر الى ان ينفصل، والقاعدة مطردة الا انه تارة يمر في عين المادة نفسها فيستر عنا ما نراه

(1) على حد قول الخفاجي:

لا ينال كسوف الشمس طلعتها * وانما هو فيما يزعم البصر.

من الشمس من اجل كثافته، فاذا رأيناه في ذلك الوقت فلا ترى الا سوادا مستديرا منطبعا في عين الشمس، وليس هو الا جرم القمر حالة مروره اسفل الشمس ولنرسم لك ما ذكرناه:





واليك الهيئة المجتمعة من الاجرام الثلاثة تقريبا، فمن كان في النصف المضيء من الارض يرى جرم القمر

منطبعا في عين الشمس حسبما تقدم، وعند انفصاله عنها تكتسب الارض شعاعا، حسبما كانت عليه، والذي يشعرنا بسبب الكسوف هو ما نراه في ذلك الحال من ان سوادا مستديرا يطرق عين الشمس من جهة المشرق، وينفصل عنها من جهة المغرب، بعد ما يمر في وسطها. اذا كان الكسوف تاما بمعنى ان مرور القمر كان تحت عين الشمس فيما يحد نظرنا، وعلى هذا فالكسوف لا يقع الا في آخر الشهر من اجل ان القمر لا يجتمع مع الشمس في السير الا في ذلك الوقت.

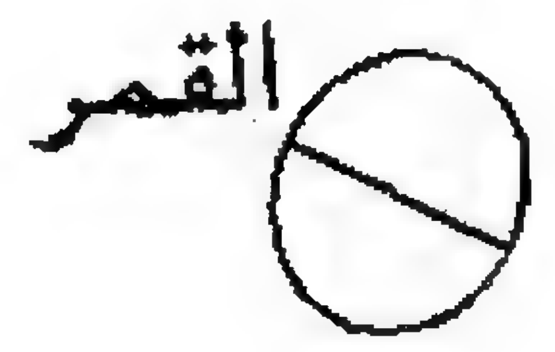
ثم اعلم انه كلما وقع الكسوف عندنا يقع الخسوف (1) عند اهل القمر، اي يستتر النور المعار اليها من الارض بسبب حلول القمر بين ذلك. وعليه فلا ترى الارض عند اهل القمر الا جسما مظلما، كما ترى القمر عندنا حال الخسوف الى ان ينفصل القمر عن الشمس فتعود الارض لما كانت عليه والله اعلم.

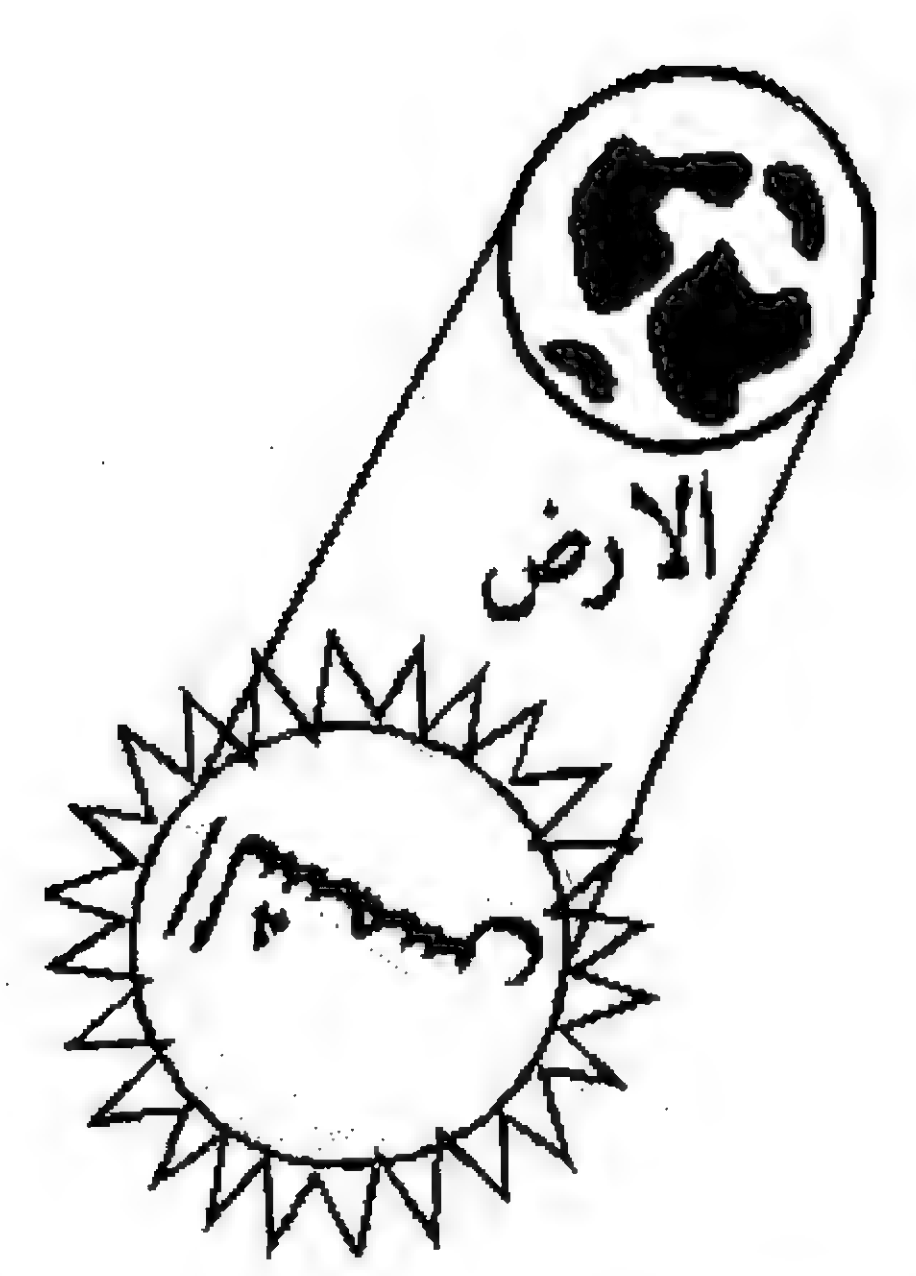
واما ما يتعلق بخسوف القمر فاقول: انه يقع بسبب حلول الارض بينه وبين النور الممتد اليه من عين الشمس، فيرى على ما هو عليه في الحقيقة. اي جسم

---

(1) قوله: الخسوف اي استتار النور الواصل اليها من جرم الارض حالة مقابلة الشمس لها لان الارض تنوب عند اهل القمر عن الشمس كما ينوب القمر عندناعنها.

مظلم الى ان ينفصل المانع، والامر سهل لمن تأمله واستحضر وجود الهيئة الحاصلة بين الاجرام الثلاثة في وسط الشهر كما سنرسمها ان شاء الله. وذلك ان الشمس تكون بالمغرب والقمر يكون بالمشرق، ومن المعلوم ان الارض تكون بين ذلك حسبما يدركه البصر العام. كما هنا:





فهكذا تكون الاجرام الثلاثة على نسق واحد، فوجود

المقابلة حاصل ضرورة، وقد تقدم ما يدل على ان نور القمر مكتسب من نور الشمس. فاذا انقطعت المادة الواصلة من الشمس الى القمر، فجرم الارض يرى القمر حينئذ على صفاته الاصلية، ما دام جرم الارض لم ينفصل عن المادة، فاذا وقع الانفصال تفيض انوار الشمس كعادتها، وهي قاعدة مسلمة، لان الكسوف لا يقع الا في وسط الشهر، من اجل ان الارض لا تحول بين الجرمين الا في ذلك الوقت. واما في اول الشهر وفي آخره، فيكون القمر قريبا من الشمس في السير، فلا يمكن حلول الارض بين ذلك، وكل من نظر في ذات القمر حالة الخسوف، يجد خيالا مستديرا مرسوما في وسطه، وذلك هو خيال الارض حالة مروره، وهذا اذا وقع الخسوف غير تام. واما اذا وقع تاما فلا يرى شيء من ذلك.

ثم اقول: كلما وقع الخسوف عندنا يكون الكسوف للشمس عند اهل القمر، بسبب انطباع جرم الارض في عين الشمس، كما ينطبع جرم القمر في عين الشمس وقت الكسوف عندنا، وعليه فالكسوف يكون عندنا بسبب مرور القمر تحت جرم الشمس، والكسوف يكون عند اهل القمر بسبب مرور الارض تحت جرم الشمس، فكلما وقع الخسوف عندنا يكون الكسوف عندهم،

وكلما وقع الكسوف عندهم يكون الخسوف عندنا والله اعلم.

ثم اعلم ان القمر لا يستر عين الشمس بالتمام لصغره بالنسبة الى الشمس، انما حظنا منها، ولهذا يقع الكسوف في جهة من الارض دون بقية الجهات، وقد يقع تاما في جهة دون الاخرى.

تنبيه: ان خسوف القمر يطول على كسوف الشمس، من اجل ان جرم الارض الذي يكون حائلا بين القمر وشعاع الشمس، اكبر من جرم القمر الذي يكون حائلا بين جرم الارض وشعاع الشمس حالة الكسوف، فيحصل انفصاله عن الشمس في ادنى وقت، وهكذا ما يتعلق بسبب وقوع الخسوف والكسوف على ما يظهر. واما كونهما وقتين من اوقات الصلاة، فلا ينافي ما ذكرناه، بأن الشارع رتب عليها عبادة مخصوصة كبقية الاوقات. فاذا زالت الشمس عن كبد السماء مثلا يجب على المكلف ان يصلي أربع ركعات، فكذلك سن في حقه الشارع ان يصلي ركعتين (1) في كل ركعة ركوعان، مع

---

(1) اي كلما حال جرم القمر بين الارض والشعاع الواصل اليها من الشمس وهكذا في خسوف القمر يصلى ركعتين ركعتين حسب المقرر الى ان ينجلي نورها.

التجائه لله عز وجل بالدعاء على ما يقتضيه الوقت من الانقباض، ليفيدنا كيفية الالتجاء لله عز وجل كلما حبست عنا نعمة حسية او معنوية، ولنستشعر بوجود المدبر لشؤون العالم في كل وقت وحال. فسبحانه من حكيم حميد.

المبحث السادس عشر

في الكلام على الكرسي وما حواه من الاجرام العظيمة

وفيه يتعلق بالكواكب من جهة الكثرة والحركة وعدمها، وفيه ما يقتضي الحيرة في عظمة الله عز وجل قال (1) في ‹روح البيان› في معنى الكرسي: ما هو الا تصوير لعظمة الله تعالى، وتمثيل مجرد، ولا (2) كرسي في الحقيقة، ولا قاعد. وتقريره انه تعالى خاطب الخلق في تعريف ذاته وصفاته بما اعتادوه في ملوكهم وعظمائهم

---

(1) وهذا القول هو مختار (الغزالي) وغيره من العلماء.

(2) اي حسبما يتخيله الفكر من انه على الهيئة المعلومة والمعنى انه على خلاف ذلك.

قلت: والمعنى انه عبارة عن سعة ملكه، (1) وعظيم سلطانه، وسيأتي ما يتعلق بوسعه وغير ذلك.

واما ما يتعلق بالكوكب من جهة الكثرة، فأقول: انها تبلغ غاية لا يتمكن الافصاح عنها، وبالجملة هي جند الله الاعظم **(وما يعلم جنود ربك الا هو)** (المدثر:13) وفيما توصل اليه البصر كفاية لمن تدبره.

وأما ما وراء ذلك فيعجز الفكر، ولو ان البصر يتوصل لما حجب عنه بسبب البعد، وجد السماء كلها نور، والمعنى انه لا يرى فيها مقدار انملة فارغا بسبب تراكم الكواكب بعضها فوق بعض، ومن وراء ذلك ما لا يخطر ببال من جهة كثرتها، والذي فسح لنا فيما نراه من زروقة السماء، بعد الكواكب عن بعضها بعضا، فكل كوكب احاط به من الفراغ قدر ما احاط بأرضنا هذه، حتى لو فرضنا من ينتقل الى أي كوكب يجد بينه وبين بقية الكواكب كما بينه وبينها الآن، وهكذا كلما انتقل الى كوكب يجد بينه وبين السماء كما هو في ارضنا. فتأمل مع كثرة الكواكب الى اين تبلغ هاته الغاية، وكل هذا راجع الى وسع الكرسي، ومن ذلك لو ان جرما من

---

(1) يشير بذلك الى ان الملك يطلق عليه اسم الكرسي مجازا قال (الفخر الرازي) وتارة يسمون اي العرب الملك بالكرسي لان المالك يجلس على الكرسي فيسمى الملك باسم مكان المالك.

هاته الاجرام المذكورة انفصل عن محله بمعنى سقط عن مركزه ومال الى الاسفل، فمن المعلوم يكون سريع النزول كما هي عادة الاجرام، وبالاخص مع ما له من العظمة ويبقى حالة النزول من حين خلقه الى ان يرث الله الارض ومن عليها لم يقطع من وسع الكرسي أدنى شيء بالنسبة لعظمته، وحيثما سار حالة السقوط إلا والحق يناديه: ها أنا ها أنا. والمعنى أعظم مما نتخيله في الوسع. وبالجملة فإن ملك الله بلغ الى غاية في الاتساع لا يمكن المزيد عليها، ولهذا قيل في عرشه تعالى المجيد، ولو لم يكن على هاته الصفة لا يصح اطلاق هذا الاسم عليه، لأن المجيد لا يطلق الا على من كان تاما من كل الوجوه، وزيادة لو ان ملكه تعالى كان قابلا للزيادة لزم ان يكون ناقصا قبلها وذلك لا يعقل عند من له فكر سليم. وقد اشار الامام «الغزالي» الى هذا المعنى بكلمة تعذر فهمها بداهة، وهي قوله: (ليس في الامكان أبدع مما كان). والمعنى انه كل ما يمكن ان يكون هو كائن الآن. وعدم الاطلاع صير الكائن في عدم الامكان وسيأتي ما فيه ايضاح ان شاء الله.

واما ما يرجع الى ذات الكوكب فأقول: مع كثرتها /حسبما قدمناه/ كل كوكب يعدل بالارض اضعافا مضاعفة، ومنها ما يقرب من الارض، وهي على أقسام

ثلاثة: شموس وكواكب واقمار، فالشموس هي ذات النور الذاتي، والكواكب هي ذات النور المكتسب، والاقمار كذلك في الاكتساب، وهي مختصة بالكواكب حسبما قدمناه في ارضنا. فالاقمار تابعة للكواكب، والكواكب تابعة للشموس، فمركز القمر هو الكوكب، كما ان مركز الكواكب هو الشمس، ومن الكواكب ما تختص به اقمار عديدة، ولا شك ان عظمة الكوكب تعدل بالقمر اضعافا، كما ان عظمة الشمس تعدل بعظمة الكوكب اضعافا. وبالجملة فإن لكل شمس كواكب عديدة تحت سلطانها، كما يكون القمر تحت سلطان الكواكب، والمعنى ان فلك القمر يكون مندرجا في فلك الكوكب، كما هو في ارضنا بحيث ان القمر حيثما سار او دار بالارض لا يخرج عن الحيزية المرسومة له.

ثم اقول: ان الشموس اكثرها ثوابت (1) وهي التي ترى عندنا فما تدركه من الكواكب من غير سيارات السبع هي شموس في الحقيقة، فلهذا ترى عندنا بسبب ما لها من العظمة، واما الكواكب فلا يتوصل اليها البصر في الغالب لضعفها بنسبة للشموس مع بعد المسافة

---

(1) بالنظر للكواكب، ومن المحتمل ان تكون للشموس حركة ليست مشهودة عند اهل الكواكب، كما للشمس عندنا.

وحركة الكواكب التي ترى عندنا هي متوقعة من دوران الارض كما قدمناه، وإلا فكيف تطرأ الحركة على سائر اجرام العالم والارض هامدة؟ والذي يشعرك بذلك هو ما نراه من انتظام سائر الكواكب على صفحات السماء على هيئة مجتمعة لا تختلف، إذ لو كان السير واقعا عليها لاختل نظام الهيئة المجتمعة في نظرنا عندما يقع السبح لكل كوكب على حدته، والحالة ان الهيئة المجتمعة لم تتغير، ومثل ذلك كواكب الثريا، فإنًا نراها كيفما سارت الا وهي مجتمعة، ولعل الرائي يظن انها تسير في فلك واحد لعدم علمه ان ما بين الكوكب والكوكب منها كما بيننا وبين الثريا، وبعد المسافة يصير الاجرام تقرب من بعضها، وبالاخص اذا كانت على نسق واحد، فالمسافة التي بين الكواكب الثريا لا تحتمل التحديد، وهكذا غيرها، وعند الرؤية نراها تقرب من بعضها، وعلى هذا كل كوكب مما تراه إلا وهو في الغالب مركز لغيره، ومنها ما يماثل الشمس في عظمته، ومنها ما تكون الشمس كالقمر بالنسبة اليه، ولهذا قيل: ان الشمس هي تحت سلطان كوكب من كواكب الثريا، وعلى ما قدمناه من ان اكثر النجوم المرئية لنا ثوابت، فلا خصوصية حينئذ للقطب الشمالي ولا للقطب الجنوبي، ويكون المقتضى لثبوتها موقعهما من الارض، جاء

القطب الشمالي فيما يقابل النقطة العالية من الارض، والقطب الجنوبي فيما يقابل النقطة السفلى منها. فلهذا كلما سارت الارض، وكلما دارت إلا والهيئة المقابلة لها من جهة العلو والاسفل لا تتغير. نعم تظهر بعض الكواكب محاذية للقطب، تدور دورة صغيرة حذوة حسبما يقتضيه الموقع، بخلاف غيرها مما يقابل جوانب الارض، فإن الارض كلما دارت الى جهة من الآفاق إلا ويحتجب على سكان ذلك المنكب ما فيه من الكواكب، ويظهر لهم ما في الجهة الاخرى. وهكذا ما دام الفلك مستمرا.

وباعتبار ما قدمناه من كثرة الشموس والكواكب والاقمار يتعين وجود افلاك وسموات غير المتقدمة في الذكر وهو كذلك. فلكل كوكب فلك يخصه، وسماء يحده من جهة العلو، ولا ارى في ذلك ما يستبعده الادراك، لأنه يلزم لكل كوكب فراغ يحويه وفلك يقيه. وكل ما كان على ظهر كوكب يدرك ما حازه بصره من الفراغ المحيط به، كما يدرك ما توصل اليه من الكواكب الخارجة عليه، ويكون ادراكه من جهة العلو سماء بالنسبة اليه. وكل هذا راجع الى ما يقتضيه وسع الكرسي، والمعنى انه يتضمن سماوات عديدة وافلاك مديدة حسبما اشارت اليه السنة من حديث نقله في

‹روح البيان›: **ما السماوات السبع والارضون السبع في الكرسي إلا كحلقة في فلاة.**

والمعنى ان الكرسي يشتمل على اشياء كثيرة اجل من ان تحصي، فحظ السموات السبع والارضين السبع من الكرسي كحظ الحلقة من الفلاة، انما هي جملة انفردت بالذكر من بقية الجمل، ومن ورائها ما لا عين رأت، ولا اذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. والذي يشعر بوجود سموات وارضين غير المصرح بها قوله تعالى: **يوم تبدل الارض غير الارض والسموات.** (ابراهيم:48) فمن المعلوم انها تبدل بما هو ثابت الوجود الآن، وعليه فالايمان متعين بوجود البدل، وبوجود المبدل منه. وإن استعبدت الوجود غير ما ثبت عندك من السموات والارضين، فإليك ما يقربه قال تعالى: **او ليس الذي خلق السموات والارض بقادر على ان يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم** (يسّن: 81) وإلافما فائدة وسع الكرسي ان كان لمجرد السموات السبع والارضين السبع مع ما ثبت من النقل انها مثل الحلقة الملقاة في فلاة بالنسبة لوسعه، وعلى هذا فكم يحمل من حلقة؟ والواقع والانسب هو ان الكرسي يشتمل على عوالم عديدة حسبما قدمناه، فالسموات السبع والارضون السبع بالاضافة لسعة ملكه تعالى كخردلة او اشد حقارة.

والذي يفيدنا الشعور بهذا هو ان السموات السبع والارضين السبع جاءت في عرض الجنة التي اعدت للمتقين، قال تعالى: **عرضها السموات والارض** وكيف بطولها وبموقعها ومع عظمتها؟ لو فرضنا من يتباعد عنها بحيث يسترسل في الفضاء المطلق الى غاية تصيرها في نظره كأحد الكواكب في نظرنا حسبما يقتضيه الوسع التام، وقس على ذلك ماااستعظمته من بقية الاجرام كيفما كانت.

قيل: ان (هرقل) لما نزلت آية: **وجنة عرضها السموات والارض**. (سورة آل عمران: 133) وكانت همته لا تتجاوز ما حوته السموات السبع، بعث الى النبي يسأله بطريق الاستخفاف قائلا: اذا كانت الجنة عرضها السموات والارض، فأين تكون النار؟ فأجابه عليه الصلاة والسلام بقوله: **اذا جاء الليل اين يكون النهار**؟ فكان الجواب للسائل كعدمه، ودل ايضا على ان (هرقل) كان غير مستعد لقبول الجواب.

وبالجملة فإن ملك الله لا يتأتى عنه الافصاح، وبالاخص الامور الاخروية الا على سبيل التقريب، والا فالامر غريب. قال تعالى فيما يقرب من ذلك: **وان يوم عند ربك كألف سنة مما تعدون**. (الحج: 47) أي يوجد فيما عند الله من العوالم غير المرئية لنا ما اليوم عند

اهله كألف سنة من عددنا ، واذا كان اليوم يقدر عندهم بألف سنة فيما تقدر مساحة جرم كان اليوم فيه طوله ما ذكر ؟ ومع عظمته يوجد في زوايا الكرسي من الاجرام التي لا خبرة لهم به ، فلكل يومئذ شأن يغنيه .

والاعجب من هذا هو ما لو تخيلنا ان لكل جرم من الاجرام المتقدمة في الذكر (1) دارا للأبد ، اي جنة عرضها السموات والارض اعدت له كما اعدت لمن سكن الارض بدون ما يشاركه غيره من بقية العوالم ، وكيف ما تخيلنا الا والاطلاق اوسع ، وهذا ما يتعلق بالكواكب من جهة كثرتها .

---

(1) قد كان الاستاذ رضي الله عنه يقول بذلك ويبرهن على ان لكل جرم من الاجرام دارا للميعاد تخصه . ويقول: ان القيامة قائمة في كل وقت وآن . قلت: ويعضد كلام المؤلف ما ذكره الشيخ (ابو اسحاق ابراهيم) الاندلسي في حواشي (شرح مقدمات) العلامة (السنوسي) عن الشيخ (احمد بن عبد الرحمان بن كوار) انه سئل عن شيء من قدرة الله تعالى ومخلوقاته . قال: ان لله تعالى في السماء بحرا من رمل ، يجري كالريح العاصف ، منذ خلق الله السماوات والارض الى يوم القيامة ، ولا يدري من اين ولا الى اين . والله سبحانه بعدد كل ذرة فيه دنيا مثل دنياكم هذه ، وما من ساعة تمضي من ليل ولا نهار ، الا ولله سبحانه قيامة تقوم على قوم ، وميزان ينصب ، وسراط يمد ، وقوم يدخلون الجنة ، وقوم يدخلون النار هـ زاد في بعض الروايات: وهما غير الجنة والنار المعهودتين .

واما ما يتعلق بها من حيث (1) انها مستقر لخلق الله عز وجل حسبما قدمناه في غير ما مرة، ومثله ما ذكرناه في (المبحث الرابع عشر) على ما يتعلق بالقمر. جاءت الكواكب في غاية المشابهة للارض، الا من المعادن والمزاج، فكل جرم يباين غيره في صفة من الصفات، لكي ينفرد بما فيه خلقا ومتاعا حسبما يقتضيه الفيض الالهي من تعدد النعم التي لا يتمكن حصرها. **﴿وان تعد نعمة الله لا تحصوها﴾** (النحل:18) اجمالا، فضلا عن التفصيل. والمعنى ان الفهم فيه كليل **﴿وما اوتيتم من العلم الا قليلا﴾** (الاسراء:85) الا ان البشر يكفيه بعضه، وعليه فكل جرم من اجرام العوالم الا والحق تعالى اخرج منه ماءه ومرعاه، وطوي فيه رزقه **﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾** (الذارات:22) كما هو في ارضنا متاعا لاهله. الا ترى ان الارض لما كان جرمها من تراب، جاء ما يناسبه حيوانا ونباتا، وهكذا بقية الاجرام كيفما كانت من حيث المعدنية، فاذا كانت طبيعة الجرم من ذهب مثلا، بدل التراب عندنا، فلا ينشأ عنه الا ما يقرب من ذات الذهب، كما جاء في

---

(1) قوله من حيث اي ذاتها فهي الى الكثافة اقرب، والى المشابهة بالارض انسب.

اوصاف الجنة (1)، وكذالك وصف النار، فان التسعة عشر التي عليها لا تبعد من ان تكون من جنسها **﴿سنة الله التي قد خلت من قبل﴾**. (الفتح:23)

ثم اقول: ان جميع ما يوجد من المعادن المختلفة في ظاهر الارض وباطنها لا يبعد ان يكون دليلا على ما عند الله من الاجرام الخارجة عن عالمنا هذا، فكل معدن وجدناه الا وعند الله جرم من جنسه، فتتبع ما حوته هاته الكرة الارضية من المعادن، ثم التفت الى قوله تعالى: **وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم**. (احجر:21) أي وما ننزله الا بقدر حسبما ينتفع به، وليكون دليلا على ما في ملكنا من الخزائن التي نتنزل به وبغيره. ومن ذلك قوله تعالى: **وانزلنا الحديد**. (الحديد:25) ولا مفهوم للحديد، والمعنى انه مجلوب من غير الارض حسبما تقدم. قال في (التأويلات النجمية) ما نصه: ان لكل شيء (2) خزائن مختلفة مناسبة له، كما لو قدرنا شيأ من الاجسام، فله خزائنة لصورته،

---

(1) قال عليه الصلاة والسلام: ما من شجرة في الجنة الا وسَاقُهَا من ذهب.

(2) اي في قوله تعالى: وان من شيء الا عندنا خزائنه (سورة الحجر 21)

وخزانة لاسمه، وخزانة لمعناه، وخزانة للونه، وخزانة لرائحته، وخزانة لطعمه، وخزانة لخواصه، وخزانة لاحواله المختلفة الدائرة عليه بمرور الايام، وخزانة لنفعه وضره، وخزانة لظلمته ونوره، وخزانة لملكوته، وغير ذلك، لكان كذلك.

والملخص من هذا ان جميع ما قلنا، وما لم نقل بالنسبة لعظمته تعالى كخردلة في بحر لجي. ولهذا قال عليه الصلاة والسلم: **حدثوا عن عظمة ربي ولا حرج**. وان جميع ما ذكرناه، راجع لوسع الكرسي وما حواه من الاجرام العديدة، والافلاك المديدة التي تجاوزت حد الحصر، بقطع النظر عما اشتملت عليه الاجرام والافلاك والسموات من الخلوقات، واختصت به من العجائب والآلات، اذ لو تخيلنا ما هنالك من الحكم الباهرة، والقدرة القاهرة، واعطينا لكل جرم مساحته مستقرا ومتاعا، او نقول ايجادا ومعادا له، ولسكانه على اختلاف طبقاتهم وتباين اوصافهم، على ما تقتضيه حكمته تعالى حسبما في ارضنا، لدكت اوهامنا دكا. بسبب ما يطرقها من عظيم الجبروت، **وينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير**. وجناح الفكر كسيرا وكيف لا والحق يقول: **لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا**.

(الكهف:109) فكأنه يقول: لا تنفد ممكناتنا ولا تنحصر مقدوراتنا ولو كان البحر مدادا، والانس والجان كتابا، لنفد البحر قبل ان تنفد الممكنات، ولو جئنا بمثله مدادا مع ما لنا من القدرة القاهرة، والعظمة الباهرة، لجاز على المثل ما جاز على المماثل في النفاد، ومصنوعاتنا لا تنفد ومملكتنا لا تَنْحَدُّ.

وبالجملة فان حصر ما قدمناه خارج عن طوق البشر، ولو على سبيل الفكر، ولو مددناكم بقوة على قوة، والذي يفيدنا الحيرة هو مجيء المدد من جهته تعالى، وحصر الخلق للخلق غير ممكن. قال في (الارشاد) (ولو جئنا) كلام من جهته تعالى غير داخل في الكلام الملقن للنبي صلى الله عليه وسلم، جيئ به لتحقيق مضمونه وتصديق مدلوله، والواو لعطف الجملة على نظيرتها، اي لنفد البحر من غير نفاد كلماته تعالى. لو لم يجيء بمثله مددا، ولو جئنا بقدرتنا القاهرة بمثله عونا وزيادة، لان مجموع المتناهي متناه.

قلت: وعدم تناهي الممكنات من حيث انه كلما انتهت الى غاية يصح الايجاد من بعدها، وتسمية الممكنات بالكلمات من تسمية المسبب باسم السبب، لكونها ناشئة عن كلمة (كن) نقله في (روح البيان).

المبحث السابع عشر
فيما يتعلق بالعرش

أقول: ان العرش يجري فيه ما تقدم في الكرسي، من كونه تعالى خاطب العباد بما اعتادوه في ملوكهم وامرائهم من جهة التعظيم والاجلال، والا فشانه تعالى يجل عما في الخيال، فلا نجنح لما اعتادته الاوهام من تصوير ما لا صورة به في الحقيقة، او صورة تباين ما في الخيال، واننا ذكرنا فيما يتعلق بعظمة الكرسي ما يعجز الفكر، ومع ذلك بنسبته للعرش هو كنقطة في بحر، بدليل ما جاء في السنة من حديث (1) آخره: **ان فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة**، وعلى هذا يكون عبارة عن شيء غير معقول الغاية فيما يرجع لذاته تعالى من حيث انه مستوى الرحمان، ويلزم من الاستواء عليه الاستواء على جزئياته (2) **﴿له ما في السموات ومـا**

---

(1) نقله في (روح البيان) ونصه (ما السموات السبع والارضون السبع الا كحلقة في فلاة وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة).

(2) قال في (روح البيان) وتخصيص العرش اي بالاستواء عليه، لانه اعظم المخلوقات، فانه الجسم المحيط بجميع الاجسام. فالاستواء عليه استواء على ما عداه ايضا : من الجنة والنار والسموات والعناصر وغيرها....

في الارض وما بينهما وما تحت الثرى (طه:6) وبهذا المعنى يكون الاستواء موجودا في كل فرد من افراد الوجود ، بحيث انه لا يوجد في الخارج اكثر مما هو في الداخل **(وهو الذي في السماء اله وفي الارض اله)**. (الزخرف:84) قال عليه الصلاة والسلام: **لو انكم دليتم بحبل الى الارض السابعة لهبطتم على الله**. ومعناه: **اينما تولوا فثم وجه الله** (البقرة:115) وعلى هذا لا يوجد في العرش من القرب ما ليس هو في غيره على ما يقتضيه الاطلاق ، وليس علينا الا ان نعتبر وجود الالوهية مع كل شيء شيء ، ولا نتوهم وجودها في العلو اكثر منه في الاسفل ، قال عليه الصلاة والسلام: **ان الله احتجب عن العقول، كما احتجب عن الابصار، وان اهل الملاء الاعلى يطلبونه كما تطلبونه انتم**. فهكذا وجوده حير المخلوقات ، وفيه استوت المراتب والجهات فيما يرجع لجانب الذات ، فالكل يطلبه في البعيد ، وهو اقرب اليه من حبل الوريد . **(من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها)** (الزمر: 41) **(وما ربك بظلام للعبيد)** . (فصلت: 46)



المبحث الثامن عشر

فيما يتعلق بالارض في أول الخلقة، وما هي عليه الآن من جهة الصورة.

ذكرنا فيما مضى ما يدل على ان اجرام العالم كانت مجتمعة في اول النشأة حسبما يتبادر اليه العقل، وصرح به النقل، قال تعالى: **كانتا رتقا** (الانبياء:30). وقد تقدم ما يتعلق بهذا المعنى في اول الكتاب، وعليه فالارض كانت متصلة بجرم الشمس كغيرها من الكواكب السيارة. وعند الاتصال كان الجميع نارا، وكذلك بعد الفتق، او نقول بعد الانفصال تميزت الارض عن الشمس، وبقيت على حقيقتها الاصلية من كونها نارا حسبما هي عليه ذات الشمس، لان الفرع اذا انفصل عن الاصل لا يتغير في الغالب الا بطول المدة. ولهذا بقيت على صفاتها الذاتية اي على غير مهاد ما شاء الله، والحالة انها لواحة للبشر، لا تبقي ولا تذر.

نعم كانت معمورة بجنس الجان، حسبما يناسبها ذاتا واوصافا، وبهذا جاء التنزيل، قال تعالى: **والجان خلقناه من قبل من نار السموم**. اي من محل شديد الحر، وفي تقدم خلق الجان على البشر ادل دليل على ما قدمناه من ان حقيقة الارض كانت نارية، ثم تلبست بالتراب،

من اجل ان عادة الله في خلقه ما من مكان الا واهله من جنسه، فيلزم من تقدم الجان على البشر تقدم النار على التراب. جاء الجان بالبطش الهائل، حسب نار السموم، كما جاء البشر موافقا للحمأ المسنون، **(وخلق الانسان ضعيفا)** (النساء:28) فكل يعمل على شاكلته ولولا تقدمه على البشر لما تصرف في آب البشر، لانه كان ارسخ منه قدما، واعلم منه في احوال الطبيعة، فآدم كان ترابيا، وابليس كان ناريا، والتراب وان تسلط على النار، فالنار لم تزل تؤثر فيه، والحكم للاكثر، فهي الى الآن تتصرف في البدن الترابي، ولولا القوة النارية لانعدمت البشرية.

ثم اقول: ان احتجاب الجان عن الابصار لا ينافي وجوده، اذ لا يلزم من عدم الوجدان عدم الوجود كما هي القاعدة المسلمة، خلافا لما توهمته بعض الجهلة من ان عدم الوجدان يستلزم عدم الوجود مع علمهم بان الانسان قد يعجز عن ادنى شيء في نفسه، فضلا عن ان يدركه في غيره: **ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء** (البقرة:255) سألت استاذنا رضي الله عنه عن الحجاب المانع لنا من ادراك الجان، /وكانت له خبرة بأحواله/ فأجاب: انه رمش العين، بحيث لو ان احدا فتح بصره وتكلف لعدم الرمش الى ان تمتلىء عيناه

دموعا ، وبعد ان تنقطع دموعه يحصل على رؤيته .

ثم اقول: لما كانت الارض على صفاتها الذاتية انفرد بسكناها جنس الجان زمنا بين طاعة وعصيان ، الى ان صلحت لان يشاركه غيره من الحيوان وذلك عند تلبسها بالتراب ، كتلبس الجمرة بالرماد ، او نقول الروح بالجسد . وهذا التلبس هو المعبر عنه بقوله تعالى: **والجبال ارساها** (النازعات:32) اي سترها وثبتها من بعد الاضطراب والخفة الى ان صارت تسير سيرا معتدلا حسبما هي عليه الآن ، والدليل على ان الارض محشوة نارا ، هو ما قدمناه فيما يتعلق بالجان ، ومثله قوله عليه الصلاة والسلام: **ان تحت البحر نارا** . نقله في (تنبيه الانام) واطلاق البحر على عموم الارض من باب التغليب للاكثريته على البر ، كما في قوله تعالى: **واذا البحار فجرت** (الانفطار:3) ، اي تتفجر نارا ، وكذلك البر عند انتهاء المدة على ما قاله بعض المفسرين **(وبرزت الجحيمَ للغاويين)** (الشعراء:91) ومن المعلوم ان الارض لا تتفجر الا بما اكنته في باطنها ، والاواني تنضح بما فيها ، اي ما فيها يظهر عليها . **(من سر سريرة البسه الله رداءها)** . والذي يفيدنا الشعور بهذا ، هو ما نراه الآن من تفجيرها بالعيون الحارة في كثير من البقاع ، فنستدل على ان موقع العنصر كان محاذيا لكرة النار ، والا فمن

اين اكتسبت تلك الحرارة التي لم تضعفها مادة الانفصال، وهذا الاستدلال باعتبار موقعنا على الارض، فاننا لا نرى غيره، واما باعتبار بعض البقاع فانها تتفجر نار كما هو بجبال الهند وغيرها، فقيل: **انها ترمي بشرر كالقصر** (المرسلات). يشاهدها كل من حاذاها، ومثل ذلك في بلاد اميركا فقيل: انه يوجد فيها من البراكين ما يزيد على مائة بركان مشتعل، وهكذا بالقسم الخامس من الارض المسمى الآن (بأستراليا). وبالجملة هي عندهم من الامور العادية، تدل ضرورة على ما في باطن الارض، والحاصل من هذا، ان جرم الارض نار ملتفة بوجود التراب لفا كليا، الا بعض المنافس جعلها الله دليلا على ما في باطن الارض، وايضا لا تتنفس من جوانبها، ولولا ذلك لزلزلت الارض زلزالها، وبعد كونها ملتفة بالتراب الا ما استثني. فكذلك التراب ملتف بوجود الماء، والمعنى ان الماء محيط بالكرة الترابية احاطة كلية الا بعض البقاع خالية منه، مرتفعة على الماء تقدر بالربع من الارض، وهي مقر البشر. وبعد احاطة العنصرين بالكرة النارية احاط الهواء بالجميع احاطة دورية من كل جانب، وكل مظروف من الارض له نفوذ من ظرفه، فالنار نافذة من الكرة الترابية حسبما قدمناه، والبر نافذ من البحر، وهو ما علاه، والماء نافذ

من الهواء وهو البخار المتصاعد من الارض الى منتهى احاطة الهواء بالتراب. ولنرسم لك هيئة الارض المجتمعة من العناصر الاربعة ان فرضنا قسمة الارض حسب منطقة الاستواء، واليك احد شقيها على سبيل التقريب:



فتأمل احاطة العناصر ببعضها، وهكذا كل عنصر له غلبة على غيره من جهة الاستيلاء.

ثم اعلم ان عنصر الهواء محيط بكرة الارض. كما قدمناه وابتداؤه مماس للتراب، ومنتهاه للعلو سبعون ميلا تقريبا. وهكذا من كل جانب، والمعنى انه محمول للارض، او نقول من اجزائها بحيث لا يفارقها في السير

كيفما سارت وحيثما دارت، ووراء المسافة المذكورة فراغ ساكن حتى لو فرضنا من يرتفع عن الارض الى ان يجاوز مسافة الهواء تنعدم بنيته بانعدامه، وربما تخلفه الارض في سيرها بسبب خروجه عن حييزها . واذا وقع الانفصال تأخذه جاذبية من جرم آخر كلما حاذاه حالة السقوط .

واما عنصر الماء او نقول البحر المحيط بالتراب، فمسافة غلظه ليست مستوية من كل جهة كما تقدم في الهواء، وان كان هو مماسا للارض من جهة الاسفل فيكون في جهة اعمق (1) منها في الاخرى، والمعنى انه متشعب من جهة الارض مستو فيما يحاذي الهواء .

واما كرة التراب فهي متشعبة من جهة الظاهر، اي فيما يحاذي الماء، والهواء مستوٍ فيما يحاذي النار من جهة الباطن. وعليه فمسافة غلظ التراب غير مستوية في كل الجوانب، فموقع البحر منها اقرب الى النار (2) من غيره، لانه جاء فيما غار من الارض .

---

(1) وقالوا: ان مستوى البحار من جهة العمق فيما بين الالف الى الثلاثة آلاف متر. واما اعمقه فهو البحر الهادي الكائن بجنوب شرق اليابان، فقد بلغ ثمانية آلاف وثمنمائة متر.

(2) ولهذا جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم (ان تحت البحر نارا).

ثم اقول: ان لكل عنصر سكانا من جنسه، وهكذا سنة الله في خلقه. فالنار مقر الجان، والبحر مقر الحيتان، والتراب مقر الحيوان، والهواء مقر جنس لا يدرك بالعيان، وهو المعبر عنه بالهباء، وقد يسمى ايضا بالجراثيم الهوائية، فانه جند من جنود الله، وعليه فالهواء جسم ممتلىء بخلقه تعالى، وسكانه اخفى من الخفاء، وادق من كل دقيق، بحيث انه ممتزج بما يناسبه، ولو عاينا ما هناك لما وجدنا نفسا فارغا مما ذكرنا.

وبالجملة، فان كل نفس منه تشتمل على الوف عديدة، وهو شيء يدرك لمن دقق النظر، وبالاخص اذا اشرقت الشمس في كوة، فانه يرى كالغبار متصاعدا مع شعاع الشمس، كما يمكن ايضا ادراكه على صفته الخاصة لمن كانت له آلة مكبرة للاجرام، والماء يماثل الهواء فيمن سكنه من الاجرام الخفية. وباختصار لو فتشنا ادنى شيء لوجدنا فيه من خلق الله ما لا تحتمله الافهام، فكيف لو اعطينا لكل فرد من افراد الهباء مستحقه من اللوازم المحتاج اليها حسبما يقتضيه الفيض الالهي، من حيث ان الحق تعالى ينزل الخلق منازلهم، لاحتجنا ان يكون البحر مدادا والاشجار اقلاما والانس والجان كتابا ومنتهى ذلك ان يقال: **وما**

يعلم جنود ربك الا هو (المدثر:31)، وهذا ما يتعلق بالارض من جهة التركيب الحالي.

واما ما هي عليه من جهة الصورة فهي كروية (1) على هيئة البيضة حسبما رسمناها في (المبحث الثاني عشر) ودليل كرويتها يأخذ من اختلاف المطالع حسبما نراه، اذ لو كانت مبسوطة على صورة واحدة لزم للشمس ان تظهر على اهل الارض دفعة واحدة، وتغيب عنهم كذلك، والحالة ان المطالع مختلفة، والاوقات فيها متباينة، فمهما كان وقت في جهت كان ضده في مقابلها، وهكذا على ممر الايام حسبما قدمناه في (المبحث الثاني عشر). فدل على ان الارض مدورة، ومن ذلك لو ان احدا توجه بالسير الى جهة المشرق مثلا، وجد في سيره برا وبحرا، فانه ينتهي سيره مما ابتدأه من جهة المغرب. وعليه فاحاطة البشر بمنطقة الارض عرضا من الغرب الى الشرق ممكنة، بخلاف ما اذا كانت طولا اي من جهة الجنوب الى الشمال متعذرة في الغالب، خارجة عن طوق البشر فيما يظهر، من اجل ما حوته من الامور المباينة لطبعه، وبالاخص ما فيها من الثلـــج، فانــه من

---

(1) اذ لا مجال للشك في كروية الارض بعد الكشوف الحديثة التي توصل اليها علماء الفلك.

جهة العلو من الارض، اي فيما يقابل القطب الشمالي، ما لا يحتمله النوع الانساني. وكذلك في الاسفار، اي فيما يقابل القطب الجنوبي منها. وبالجملة فان شقها بالسير طولا غير ممكن على ما يقتضيه الحال، والله اعلم بما في الاستقبال.

ومن اجل ما قدمناه من كون المشي فيما يقابل القطب الشمالي، والقطب الجنوبي غير متيسر للبشر. قال تعال: **فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه** (الملك:15) اي مما يلي المناكب مخرج للاعلى والاسفل منها، وفي ذكر المناكب ادل دليل على كرويتها، واذا لم تكن كذلك، فلا يمكن المشي في المنكب حالة بسطها، وعليه فادراك كروية الارض غير متعذر على من له ادنى اطلاع على احوالها، وبه قال الامام (الرازي) (وامام الحرمين) وغيرهما من علماء الدين، وقد بلغ (الرازي) في هذا الباب في (تفسيره) وغيره الى ان قال: انه لا يشك في كروية الارض الا من لا تدبر له. (انتهى). والله مهدينا لما فيه صلاح الدارين.



المبحث التاسع عشر

فيما يتعلق بنزول المطر وغيره من الوقائع السماوية

أقول: ان نزول المطر، يتوقف على اسباب سماوية، مع مشاركة الارض لها على ما تقتضيه الحكمة الازلية من ارتباط الاسباب بمسبباتها، وكمون الاشياء في اضدادها، وكل يسير حسب تقدير العزيز العليم، واننا قدمنا فيما مضى ما يتعلق بالارض من جهة تغير احوالها، وكلها راجع لقربها من الشمس، وبعدها عنها. وعليه، اذا كانت الارض بارزة الى الشمس بجهة تثير فيها حرارة، والعادة فيما نراه ان الابخرة تتصاعد من جرم الارض في فصل الصيف بجاذبية الشمس لها من البر ومن البحر، وكلما كانت الارض قريبة الى الشمس بجهة تكون متباعدة عنها من الاخرى، والجهة المتباعدة عن الشمس يتناولها فصل الشتاء حسبما قدمناه، وينعقد بخارها سحابا، ويقصد النزول كما هي عادة مشاهدة من البخار مهما وصل الى طبقة باردة ينعكس ماء. فهكذا تنعكس الابخرة المتصاعدة في الصيف اذا وصلت الى الطبقة الباردة المسماة بالمعصرة ماء، ويقصد النزول دفعة واحدة. قال تعالى: **وانزلنا من المعصرات ماء**

ثجاجا (النبأ:14) الا ان الحائل الذي بينها وبين جرم الارض، لا يسمح لها الا بقدر معلوم. وهو جرم الهواء الممتزج بالابخرة المتصاعدة آخرا التي لم تبلغ للطبقة الباردة.

ثم اقول: ان الابخرة حالة صعودها لا تخلو من ان تخالطها اجزاء ترابية، واخرى نارية، حسب تخلل العناصر ببعضها، وعند وصولها الى منتهاها يؤلف الله بينها ازواجا، كل جنس يميل الى جنسه، كما هي سنة الله في خلقه، ليحصل التقابل بين الضدين، فمن كل شيء زوجان اثنان، وعند الانعقاد تتباين الاضداد، وتتراكم الامواج، وتتبسط على صفحات الجو بتسلط الريح عليها، الى ان ترى الودق يخرج من خلالها، وعندما تأخذ الريح تقلب في اجرام السحاب مع ما لها من المباينة، حسبما قدمناه. يقع لها اضطراب واصطكاك مع بعضها، واذا كان ذلك بين المتناسبين فلا يقع منه شيء، واذا وقع بين المتباينين خلق الله منه ثالثا، اي احدث ذلك اللامع المسمى بالبرق، كحدوث النار عند ملاقاة الحجر مع صنف الحديد، وحدوث البرق يستلزم سحق ما حاذاه من الابخرة، اي حرقها في اقرب وقت، حسبما هو عليه من الخفة، فيحصل فراغ في الجو بسبب تصير المتراكم خفيفا. والحالة ان الجو

كان مثل البحر المكفوف، فكلما فرغت فسحة منه انطبقت عليها الجهتان مع ما لكل جهة من العظمة المحيطة بجرم الارض، وبذلك ينشأ الصوت المسمى بالرعد، وكانت عظمة الرعد مقرونة بعظمة البرق قوة وضعفا، اي كلما ترك البرق فسحة في الجو تلاها الرعد بقدرها ان صغيرة فصغيرة، وان كبيرة فكبيرة.

ثم اعلم، ان في فصل الشتاء يكون البخار كثيفا، ولهذا يسمع له صوت عظيم عند انطباقه، خلافا لما هو عليه في الصيف، فقد يقع البرق ولا يقع عند الالتآم صوت من اجل ما هو عليه البخار من الخفة، وعليه فيكون اصطكاك اجرام السحاب مع بعضها يماثله اصطكاك الامواج البحرية، الا ان الاول اعظم حسبما عليه عمق الجو، وانتشار اطرافه مساحة لا تماثلها مساحة البحر في ادنى شيء، ولهذا يسمع له صوت هائل.

وبالجملة، فان جميع ما ذكرناه لا يفيد الاستغراب، انما هو توضيح لما اجمله النص الصريح. قال تعالى: **الم ترى ان الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه، ثم يجعله ركاما، فترى الودق يخرج من خلاله.** (النور:43) خطاب منه تعالى يتناول كل من تتأتى منه الرؤية، شامل لكل بصير، كأنه تعالى يقول: الم ترى كيف تتنزل الامطار،

وذلك اني اجمع من فوقك سحابا بعدما لم يكن شيئا، ثم نؤلف بينه بتسلط الريح عليه حتى يكون ركاما، اي كثيفا متراكما مع بعضه، بعد ان كان خفيفا واهيا، وبتراكمه وانضمامه واصطكاكه مع بعضه يتخلله ماء، فترى الودق يخرج من خلاله. اوليس في ذلك دليل على قدرتنا الباهرة ؟ **الم تعلم ان الله على كل شيء قدير؟** (البقرة: 106).

وعلى هذا يكون نزول المطر من السحاب حقيقة، ومن السماء مجازا، وبه قال المحققون من اهل السنة كما نقله (البيضاوي) وغيره، قال باختصار: ان الصواعق السماوية تتولد من اضطراب اجرام السحاب واصطكاكها مع بعضها، وعبر عن هذا القول بالمشهور، ومثله قول الحسن البصري نقله في (الحصون الحميدية).

ثم اعلم، ان جميع ما ذكرناه لا ينافي وجود الملك المصرح به في بعض الاحاديث من كون الرعد والبرق ملكين يسوقان السحاب، نعم هو مناف عند من يتخيل وجود الملك على هيئة البشر، من كونه ذا رجلين ويدين وغير ذلك من لوازم الحيوان خسبما يحدثه فكره الجامد، بدون ما يعلم ان حقيقة الملك تباين ما في الاوهام، ولم لا نعتبر وجودهما من قبيل وجود الكرام الكاتبين المصرح بهما في لسان الشرع، من كون احدهما

عن اليمين، والآخر عن اليسار، والحالة اننا نرى البشر ولا نرى من يلازمه، وهكذا لو توصلنا لاجرام السحاب لوجدناها تضطرب مع بعضها بدون ما نرى زائدا عليها حسبما قدمناه في البشر، مع ملازمة الكرام الكاتبين له، فعدم ادراكنا المتعلق بظواهر الاشياء لا ينافي وجود الملك الملازم لبواطنها. قال (السهيلي): المراد بالاجنحة في حق الملائكة صفة ملكية وقوة روحانية، وليست كأجنحة الطير، ولا ينافي ذلك وصف كل جناح منها بانه يسد ما بين المشرق والمغرب، نقله في (روح البيان) والله الهادي وبه المستعان.

المبحث الموفي للعشرين
فيما يتعلق بوقوع الريح ونتائجه

اقول: ان الريح هو نفس الهواء المحيط بكرة الارض، الا انه يتحرك تارة ويسكن اخرى لاسباب، منها ما يطرأ على الارض من التقلبات امام الشمس من كونها دائما تقرب اليها من جهة وتبعد عنها بالاخرى، والجهة المتباعدة عن الشمس يكون هواؤها المحيط بها

ذا ثقل على حد ما قدمناه، خلافا لما هو في الجهة المقابلة لها ، ولهذا يشتد الريح في الجهة المتباعدة عن الشمس المعبر عن زمانها بفصل الشتاء ، من اجل ان عنصر الهواء يكون فيها مثقلا بما يمازجه من جرم البخار القريب من الانعقاد ، وكلما اشرقت الشمس في جهة منه ، اي اشتدت حرارتها تثير فيها خفة ، والحالة ان الجو كان معتدلا تقرب اطرافه من بعضها ، حتى اذا خفت جهة منه تميل عليها الاخرى من حيث الاتحاد مع ما تكون عليه من الثقل ، كما تميل كفة الميزان بسبب المرجح ، فيقع اضطراب في عنصر الهواء بقدر البقعة المنتقلة منه الى حيز الخفة ، ومهما وقع منه ميل في جهة امتد الى ما يحاذيها بسبب ارتباط الاطراف ببعضها ، فكل يميل لمحاذيه ، ويقصد التداخل في غيره . وهكذا يدوم في حركته ، الى ان تمتزج اطرافه ويقع الاعتدال فيها سواء (1) بسواء ، وعند اضطرابه يجتمع

---

(1) ذكر في (النخبة) ما يتعلق بهذا الموضوع قال: «ولما كانت الاقاليم الاستوائية مرتفعة الحرارة ، والاقاليم القطبية مرتفعة البرودة ، كان التعادل بين الطبقتين غير موجود ، فلذا يميل هواء خط الاستواء الحار الى الصعود لخفته . وهواء القطب البارد الى الهبوط لثقله ، فيتكون بهذه الكيفية في كل من نصفي الكرة تياران هوائيان: احدهما منخفض لثقله ، آت من القطب الى خط الاستواء والآخر مرتفع لخفته يذهب من خط الاستواء الى القطب ويمكن تشبيه هذه الحركة بحالة فتح باب محل ساخن فانه بمجرد فتحه .

سحاب كاجتماع الزبد عند مخض اللبن ، وهو في فصل الشتاء اقرب منه في فصل الصيف. والمعنى ان اجتماعه يكون بحسب ما عليه الجو من الجمود ، وكلما سار الاعتدال في انحاء الهواء رجع الى السكون. وهكذا لا تترجح جهة منه على الاخرى الا اذا حصل ما قدمناه.

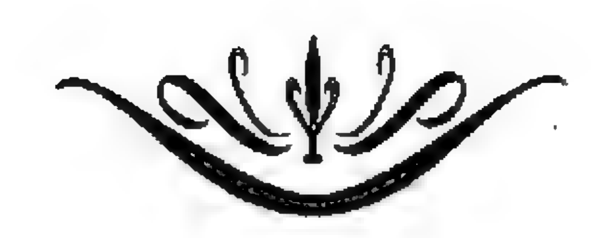
واما في الجهة التي تكون الارض فيها متوجهة الى الشمس المعبر عن زمانها بفصل الصيف، فلا يقع في هوائها الاضطراب الشديد في الغالب، لاستواء جهته في الخفة ، نعم تشرق الشمس في البعض من جهته بحرارتها ولا تثير فيها خفة اكثر مما هي عليه ، واذا وقع التأثير فيها فالمحاذي لها يماثلها تقريبا ، ولهذا تكون حركة الجو في الصيف غير حركته في الشتاء ، واذا وقع منه اضطراب لا يثير سحابا الا فيها ندر لعدم انعقاد البخار ، وبعده عن الصفة المائية.

واما اشتداد الريح في آخر الشتاء وفي آخر الصيف بسبب اعتدال الارض من ميلها حالة السير ، فاذا اخذت هيئتها تتغير امام الشمس تاخذ هيئة الهواء في التغير من الجهتين ، اي من جهة الجنوب ومن جهة

... يدخل فيه تيار بارد آت من الخارج ويخرج تيار آخر اعلى منه من الداخل».

الشمال. وهكذا الى ان يحصل الاعتدال، وعلى هذا يلزم تغيير الدائرة باجمعها الى ان يمتزج الكل بالكل، ويصير الجميع قريبا من بعضه، وهذه حكمة الله في سبب حركة الريح، مع علمنا بان الله تعالى هو مسبب الاسباب.

ثم اعلم، ان حكمة خلق الريح ليست محصورة في استجلاب السحاب وغير ذلك من النتائج الجوية، بل فوائده اكثر من ان تحصى، منها حركة النبات ولولاه لاشتدت عليه الارض، ومنها جفاف الارض وتحسينها ولولاه لتعطلت فوائدها. ومنها تتساقط اوراق الاشجار تمهيدا منه لغيرها، ومنها حركة البحار وتقلب عيونه ليظهر منه ما خفى متاعا لسكانه. وباختصار، لو لم يكن من خصائصه الا قوام البدن لكفى. حيث كان ممدا لروح الانسان، ولهذا جاء في الحديث: **انه من روح الله**. اذ هو شرط في بقاء الروح المنفوخ منه في آدم، فالروح يدوم تعلقه بالبدن بدوام تردد الهواء عليه، والله وليه ومتوليه.



المبحث الحادي والعشرون

فيما يتعلق بالارض من جهة ترتيباتها الداخلية وما يقع فيها كالزلزلة وغيرها

كنا ذكرنا ما يختص بالوقائع الجوية من كونها تتوقف على اسباب سماوية مع مشاركة الارض لها ، والآن اتكلم على ما يختص بباطن الارض من جهة ما لها من الترتيب . فاقول:

لا يخفى على العاقل ان الارض تخاللها مياه من جهة الباطن كما هي محيطة بها من جهة الظاهر حسبما قدمناه . والكل يشعر بما ذكرناه ، الا انه لا يتخيل ما وراء ذلك من جهة كون الارض منذ بسطت ، والسماء منذ رفعت وهما يتدفقان ماء ، اي السماء به ينهمر ، والارض به تتفجر ، والمادة لم تنفد ، ولو كان جرم السماء كله ماء ، وجرم الارض مثله لنفدا ، وان صور عدم النفاد لامتلأ ظاهر الارض ماء ، ولو بلغ الغاية في الوسع حسبما يقتضيه طول المدة ، والحالة ان الهيئة لم تتغير ، فمنذ خلقت الارض فالبر بر والبحر بحر كما ترى . وما في السماء لم ينفد ، وعيون الارض لم تجمد ، وهكذا ما دامت السموات والارض **صنع الله الذي اتقن كل شيء**

(النمل:88). وعلى هذا لزم ان هناك ترتيبا طبيعيا يدق عن ادراك العموم، سأحدث لك منه ذكرا. فاقول:

ان عنصر الماء المختص بكرة الارض لا ينقص ولا يزيد كيفما كان، انما هو متردد بين السماء والارض يتقوى من جهة تارة ويضعف من الاخرى حسب تعاقب الفصول عليه، فباعتبار قرب الشمس منه في فصل الصيف يتصاعد الى الجو بخارا، وعند بعد الشمس عنه في فصل الشتاء يتنزل ماء، وهكذا حكمة الله فيه. وكنا قدمنا كلاما يتعلق بهذا المعنى من كون البخار يتصاعد من البر والبحر في فصل الصيف، ثم يتنزل ماء، فلهذا يتقوى البحر على البر في الشتاء، وتتكاثر العيون والانهار، وتكون الارض قابلة لاندراجه خلالها (1) لانها ذات فجاج، والبحر يسع ما زاد عليه في مدة الشتاء لا على الابد، ولتقيده بالجهات، والاناء لا يحمل الا ما يسعه. وعليه فمثال ظاهر الارض كإناء فيه ماء تقرب منه نار، فكلما اوقدتها تصاعد من الاناء بخار وهو نفس الماء الى ان ينفد ما فيه، او يقرب من النفاد، فاذا بعدت النار عليه وكان البخار

---

(1) والى ذلك الاشارة في قوله تعالى:(الم ترى ان الله انزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الارض.) الزمر ٢١

مجتمعا على هيئة من فوقه كغطاء مثلا . فانه يعود الى حقيقته، وينحذر ماء الى محله بدون ما ينقص منه شيء، وهذا ما يتعلق بجهة الظاهر من الارض.

واما من جهة الباطن منها، فمن حكمته تعالى ان جعلها ذات اخبية ومغاور واحواظ تجتمع فيها المياه في فصل الشتاء حسبما يحتاج اليه سكانها عند انحباس المطر في فصل الصيف، وما زاد عليه كالسنة والسنتين، ولهذا تتقوى العيون والانهار كلما تقوى المطر، وهي في الارض ذات الامطار اكثر منها في العطشى، وباختصار فان باطن الارض حسبما عليه ظاهرها من الترتيب المستند للبشر من كونها تخاللها خيوط مائية واحواض واخبية، وانها توجد في جهة من الارض اكثر منها في الاخرى. فهكذا باطن الارض تمتلىء في الشتاء وتنفذ في غيرها .

ثم اعلم، ان الماء من حيث هو مستوى المذاق، انما يختلف طعمه باختلاف موقعه من الارض من جهة المعدنية، كما هو مستوى ايضا من جهة الحرارة والبرودة في جميع الفصول، والمراد بالماء، الماء النابع من الارض، لا الذي على ظهرها، فحرارة ماء الآبار والعيون في الشتاء وبرودته في الصيف هي باعتبار ما عليه ظاهر الارض من البرودة والحرارة، وذلك ان ظاهر الارض في

الصيف يبلغ الى غاية الحرارة، فاذا استخرجت ما في
باطن الارض من الماء الحالي مما هو عليه ظاهرها ،
تحس له برودة بالنسبة لما انت عليه، وهكذا في الشتاء
اذا استخرجته من محله او نبع بنفسه، تجد له حرارة
كأنه مسخن، وذلك بسبب ما عليه ظاهر الارض من
البرودة بسبب بعد الشمس عنها ، ومثال ذلك كمن كان
في حمام فأخرج يده من كوة الى الخارج فيجد للهواء
برودة لم يشعر بها في السابق. وهكذا اذا كان في محل
ذي برودة يدرك للهواء حرارة لم يشعر بها في السابق.
وهذا كله راجع الى الماء القريب من ظاهر الارض. واما
ما يقرب من باطنها الذي هو كرة النار حسبما قدمناه،
فان اكثره ينعكس بخارا على ما تقتضيه العادة من ان
الماء كلما قرب من النار يتصاعد بخارا ، وعليه فان
الارض من جهة الاسفل منها تتخللها ابخرة كما
تتخللها مياه من جهة العلو، ومن طبيعة البخار القوة
الهائلة والبأس الشديد حسبما يقتضيه الشهود ، من انه
يقاوم الاجرام ويحرك السفن العظام، جاء ظاهر الارض
حسبما عليه باطنها ، فحركة الارض ناشئة عن اسباب:
منها تخللها بخارا .

ثم اقول: ان البخار لا يخلو من ان تكون له حركة في
نفسه وآصطكاك مع بعضه، وفي الغالب يقصد الصعود

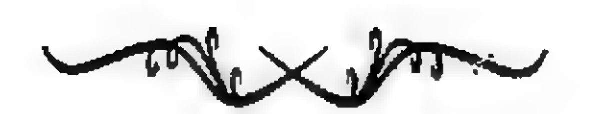
كما هي طبيعته، فتمنعه صلابة الارض كلما اراه النفوذ، حتى اذا وجد فسحة في الارض وسهولة مال اليها ميلة واحدة فيتخرم ما حذاه، وتتبدل الهيئة التي كانت حذوه، وتنشق الارض شقا، ويحس لها تزلزل في الظاهر، وتسمى عندنا هاته الحادثة بالزلزلة ويشتد بأسها باعتبار قربها من ظاهر الارض، ومن المعلوم انها تقع في جهة من الارض دون بقية الجهات، وهذا ما تقتضيه الاسباب العادية في وقوع الزلزلة، وليس فيه ما يعارض ظاهر النقل من ان ملكا (1) بيده عروق الارض وكلما اراد الله اهلاك قوم او ترويعهم امر ذلك الملك ان يجذب اليه عرقا من العروق، لاحتمال (2) ان تكون العروق هي نفس الابخرة التي هي خلال الارض.

واما ما يتعلق بجانب الملك فقد تقدم الكلام عليه عند ذكر الوقائع الجوية من انه عبارة عن قوة لازمة لبواطن الاشياء لا تتوصل إليها الابصار، وليس فيما ذكرناه الا ما يفيد الشعور بعظيم صنع الله عز وجل وترتيب ملكه. فسبحانه من حكيم عليم.

---

(1) فانه رضي الله عنه ذكر الحديث بالمعنى.

(2) وهذا ان صح النقل.



المبحث الثاني والعشرون

فيما يتعلق بذكر اليومين اللذين وقعت خلقة الارض فيهما

كنا قدمنا كلاما في (المبحث الثالث) فيما يتعلق باليوم من جهة معناه البعيد ، والآن نتكلم على المعنى القريب منه. فاقول: ان اليوم هو قطعة من الزمان اما باعتبار زماننا المختص بعالمنا هذا ، واما باعتبار ما عند الله من بقية العوالم ، فلكل زمان يخصه ، فالزمان المبهم تختلف قطعه باختلاف من يمر عليه ، ومن يمر عليه الزمان غير محصور العدد حسبما قدمناه فيما مضى ، فلكل زمان يناسبه ، فعمر الدنيا عندنا كالسنة (1)

---

(1) قوله بالنسبة لعمر غيرها مع ان تاريخ مدتها غير معقول مع القطع بحدوثها قال (محي الدين) رضي الله عنه في باب التسعين والثلاثمائة من (فتوحاته): انه لم يبلغنا ان احدا عرف مدة خلق العالم على التحديد وذلك ان اكثر الكواكب قطعت في الفلك الاطلس الذي لا يكون فيه فلك الكواكب الثابتة ، والاعمار لا تدرك حركتها لظهور ثبوتها للابصار مع انها سابحة سبحا بطيئا ، والعمر يعجز عن ادراك حركتها لقصره ، فان كل كوكب منها يقطع الدرجة من الفلك الاقصى في مائة سنة الى ان ينتهي اليها فما اجتمع من السنين فهو يوم تلك الكواكب الثابتة نقله في (اليواقيت والجواهر) للشعراني يقول علماء الجيولوجية: ان الارض قديمة جدا ، تكونت من تكاثف

بالنسبة لعمر غيرها من بقية الاجرام العلوية والعوالم الغيبية . قال تعالى: **وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون** (الكهف:47) ولا يخلو من ان توجد ايام فيما عند الله تقدر فيما بين ذلك من العدد ، اي ما بين ألف الى الخمسين ألفا (1) وعلى هذا لا يحمل اليوم مهما سمعناه في كلام الله على اليوم المعلوم عندنا ، لاحتمال ان يكون عائدا على غيره من ايام الله .

جاء في خلق الارض ما يدل صراحة على ان الارض خلقت في يومين ، فلا نحمل اليوم على اليوم المقدر عندنا بالاربع والعشرين ساعة لئلا يصير الشيء ظرفا لنفسه ، من اجل ان اليوم هذا ناشئ عن حركة الارض مع مشاركة الشمس لها . وهاته الهيئة المجتمعة وقعت بعد خلق الارض مع جرم الشمس ، فكيف تصح ان تكون الخلقة فيها ؟ وثانيا ان مدة اليوم المعلوم عندنا لا تصح لان تكون ظرفا لوقوع خلق الارض فيها ، لا من جهة القدرة المجردة ، ولا من جهة ارتباطها بوجود الحكمة

.. سحابة من الغاز والغبار الكوني منذ 5000 مليون سنة (اي خمسة مليار سنة)

(1) يشير بذلك الى قوله تعالى: (في يوم كان مقداره خمسين الف سنة) لاحتمال ان الجرم المنتقل اليه في ذلك اليوم تكون مدة يومه خمسين الف سنة باعتبار عددنا ان كانت تبدل الارض غير الارض والسموات .

والتدريج كما هو الواقع، اذ لو كانت من جهة القدرة المحض لجاءت الارض على هيئتها دفعة واحدة في القدر القليل من الزمان، اي في الجزء الذي لا يتجزأ منه، فما ابطأها الى ان مرت عليها ثمانية واربعون ساعة، والحق: **انما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن، فيكون** (يسن:82) وهذا ان كانت من جهة القدرة المجردة، واذا كانت الخلقة وقعت مع القدرة المرتبطة بوجود الحكمة، فمدة اليومين لا تسع وقوع الخلقة فيها ايضا، لان عادتها جاءت على التدريج والتأني في العمل حسبما نراه في سائر التركيبات الجزئية، فأقولُ القليل منها لا تتركب بنيته الا في مدة تناسبه، فانظر الى تركيب ماهية النبات كيف يجمع الله لاجله سحابا، ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما، ثم يشق له الارض شقا، ثم يصب منه الماء صبا، ثم يخرجه حبا ونباتا، وهو قادر على ان يبرزه واحدة واحدة، ومثله تركيب الجنين في بطن امه، والملخص من هذا ان الارض ما تم نظامها الحالي الا بعد ما مرت عليها قطعة من الزمان تناسبها، فلا نتوهم انها جاءت على هيئتها دفعة واحدة، وان كانت القدرة صالحة فحكمته تعالى تأبى ذلك. قال تعالى: **انّا كل شيء خلقناه بقدر** (القمر:49).

وهكذا جميع ما نراه من تركيب الجزئيات، الا

ومجيئه على الترتيب والتراخي، اذ لا يعجل بالشيء إلا من يخشى فواته، وعلى هذا فمن المحتمل ان يكون اليوم الذي وقعت فيه خلقة الارض، وكذلك السموات، غير اليوم المعلوم عندنا، ولا مانع من ان يصرف على غيره من ايام الله فانها لله جميعا. ويكون انسب الى هذا المقام، سواء كان مما طوله كألف سنة او من غير ذلك.

والحاصل من هذا: ان الارض ما تمت هيئتها المجتمعة من العناصر وتشعبت اطرافها ونصبت جبالها الا بعدما مرت عليها قرون (1) عديدة، ودهور مديدة، وكانت تختلف باختلاف الاوقات الى ان وصلت الى الحالة المرئية لنا من انها نار ملتفة في تراب، والتراب مغموس في ماء الا القدر المرتفع منه يقدر بربع من الارض متشتتا على اطرافها، ثم احاطة الهواء بالجميع، وكنا قدمنا كلاما في (المبحث الثامن عشر) يتعلق ببعض ما يختص بالعناصر من جهة احاطتها ببعضها. والله اعلم بما وراء ذلك.

---

(1) ذكر (محي الدين بن عربي) رضي الله عنه في الباب السابع والستين والثلاثمائة من (الفتوحات) قال: قد اكمل الله تعالى خلق الموجودات: من الجمادات والنباتات والحيوانات عند انتهاء واحد وسبعين الف سنة من خلق العالم الطبيعي. ثم قال: لما انتهى خلق العالم الطبيعي وانقضى من مدته اربع وخمسون الف سنة خلق الله هذه الدنيا، وفي هذا ما يعضد كلام المؤلف رضي الله عنه على ان خلق الاشياء جاء مرتبطا بوجود الحكمة على سبيل التدريج.



المبحث الثالث والعشرون

فيما يتعلق بالانسان الاول من تكوينه وغير ذلك مما يخصه

كنا قدمنا في عدة مباحث ما يفيد لزوم ارتباط القدرة بوجود الحكمة، وذكرنا فيما مر كيفية توقف الاسباب على مسبباتها وكمون الاشياء في اضدادها، ولما كانت طبيعة الانسان تتشوف لما خفي عن ادراكها لزم ان نذكر شيئا من الاسباب الطبيعية المتعلقة بخلقة (آدم) عليه السلام، فاقول:

جاء ما يدل على ان (آدم) خلق من الارض وتكون في الجنة، ثم رجع الى الارض، وفي هذه التقلبات ما يشعرك بما قدمناه لعدم خلوها من الحكمة، والا فما فائدتها، وهي نفس تقلب الانسان الحالي، اي من صلب ابيه الى بطن أمه الى الخروج منها، جاء وجود الانسان موقوفا على وجود الزوجين وهو نفس ما جاء في (آدم) فكانت الارض له بمنزلة الآب، والتراب المنقول منها الى الجنة بمنزلة مني الرجل المنفصل الى المرأة، والمحل المتكون فيه بمنزلة الرحم والجنة له ام، الا انه جاء بما في الارض من جهة المعدنية والنبات والعناصر

والحيوانات، فهو الى الشبه بها اقرب منه الى الجنة، فهو منسوب الى التراب.

ثم اقول: من المحتمل (1) ان الارض لما تم نظامها وبلغت الامد المستحق للولادة، تعشقت بجرم من الاجرام العلوية بعد حصول المقابلة، فوقع بينهما ازدواج وحصلت الجاذبية، وتعلق كل واحد بصاحبه بعد اذن الله لهما، فآنفصال شيء من عناصر الارض الى الجنة كانفصال مني الرجل الى المرأة، وجعله في قرار مكين بواسطة الملائكة، وبعد ما مرَّ عليه حين من الزمان اخذت يد القدرة في تخميره وتعفينه كتعفين مني الرجل في الرحم، حتى استعدت طينته لقبول الروح الالهي، كاستعداد الجنين في بطن امه بدون ما يدرك للقدرة صورة في الخارج فلا نتخيله على ما نراه من تهيء البشر للمصنوعات، فجل شأن الالوهية ان ترى لها آلة في الخارج.

---

(1) قال الاستاذ رضي الله عنه فيما ذكرناه من التعشق والانفصال هو على سبيل الاحتمال وكل ذلك مع صحة ان الجنة المنتقل منها آدم كانت من احد الاجرام الخارجية عن الارض والله اعلم بما وراء ذلك.

ثم اقول: أن (حواء) تكونت من (آدم) كما تكون هو من التراب، ومن المحتمل ان تكون كالملتصقة بجانبه في اول خلقته ولم يشعر بها الا بعد الانفصال، فيكون وجودهما يقرب من وجود التَوأمين في بطن الجنة، وعند ما قام (آدم) سميعا بصيرا تشوف للغذاء، وقبل ذلك كان استمداده مما يليه من عفونة الارض، كاستمداد الطير في البيضة، فجاءه الامر ان لا يقرب الشجرة، وان قربه منها سبب في شقاوته البدنية، وهي الهبوط الى الارض، ولا يخفى ما يترتب على ذلك من المشقة، وقبل النزول كان لا يجوع ولا يعرى، ولا يظمأ ولا يضحى، الا ان اكله من الشجرة كان فيه دلالة على وجود الاهلية للقيام بما تحتاج اليه البشرية، فبمجرد وجودها فيه وفي (حواء) قال لهما الحق تبارك وتعالى: **اهبطا منها جميعا** (طه:123)، وعلى هذا يكون اكل (آدم) من الشجرة علامة على وجود الاهلية فيه للنزول، كعلامة البلوغ الدالة على قبول الانسان للتكليف، حتى لا يكون في هبوطهما الى الارض ما يقتضي انعدام البشرية، فوجود الحرص فيه على الاكل من الشجرة دل على سيعه فيما يحتاج اليه، واما ملامة الحق ووصفه له بالمعصية فمن المحتمل ان يكون من طريق الشفقة عليه حالة النزول، لئلا يهبط ساخطا عن الله، ويرى هبوطه

اساءة من الله اليه، فكان يلوم نفسه تارة وحواء اخرى. ثم يشكر الله على عدم المؤاخذة ويرى ذلك من جميل احسانه تعالى، ويعمل عملا زائدا عما فرض عليه رغبة في المحل الذي كان فيه، وهاته الحالة احسن من ان لو هبط من الجنة بدون سبب، ففي الغالب يتهم الالوهية حسبما يقتضيه الطبع البشري، وهو غير مناسب لمقامه ولا لمقام الالوهية. جاء في وجود الانسان ما يقرب مما قدمناه في وجود (آدم) من انه موقوف على وجود الزوجين بعد التعلق والتعشق ينفصل من ذات الرجل شيء وهو المسمى بالنطفة الى رحيم المرأة فتجعله يد القدرة في قرار مكين، وتأخذ في تخميره وتعفينه وتدريجه من علقة الى مضغة الى ان يصير عظاما ولحما، وفي حال نموه يكون استمداده من جانبه بواسطة ما يصل اليه من السرة بدون ما يتكلف لشيء تقوم به بنيته، ولما تنفخ فيه الروح ويتشقق فمه ويتأهل للخروج، يناديه لسان الحال: ان لا تقرب شيئا مما في البطن بطبعك وحرصك، والا تشقى فانك الآن لا تجوع فيها ولا تعرى، ولا تضمأ فيها ولا تضحى، وان التفاتك يكون سببا في شقاوتك البدنية، والخروج من بطن امك عريانا مكشوف السوأتين، كما خرج ابوك من الجنة، فيأتيه وسواس الطبع قائلا: **هل ادلك على شجرة الخلد**

وملك لا يبلى؟ (طه:120) وهو ما يُصل اليك بواسطة فيك، فان لك فيه ارغد معاش، فياليتك تناولته، فيلتفت حينئذ لما يتقاطر من الكبد، وقبل ذلك كان غير عالم بالمذوقات، ويكون التفاته للكبد دليلا على اهليته لان يلتفت للثدي بعد الخروج من الرحم، فتناديه الالوهية بالهبوط فيسقط الولد صارخا نادما عما فعله، فتجذبه اليها يد العناية الالهية بواسطة الام وتتوب عليه وتهديه لما يتقاطر من الثدي (**ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى**) (طه:122) وهكذا كلما تذكر الصبي ذنبه صاح باكيا، فتضمه يد الالوهية اليها بواسطة الام وتضع في فمه الشيء الذي كان سببا في خروجه من الجنة.

ثم اقول والله اعلم: ان الجنة (1) التي كان فيها (آدم) غير الجنة التي عرضها السموات والارض، من اجل انها اعدت لما بعد الموت، (وآدم) كان في قيد البشرية، ونعيمها غير مقيد بشجرة دون الاخرى.

قال تعالى: **ولكم فيهــا ما تشتهــي أنفسكم** (فصلت:31)

---

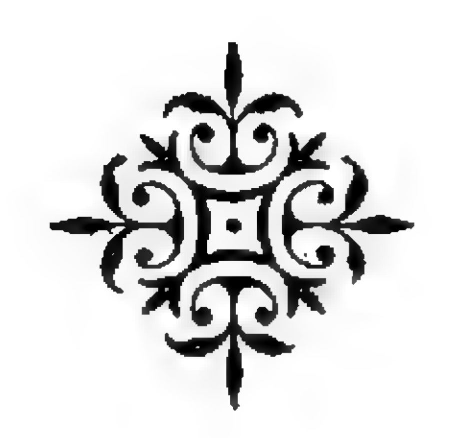
(1) لا ينكر وجود الجنة في الدنيا الا من لم يدخلها اما من دخلها فلا ينكر قوله تعالى: (ولمن خاف مقام ربه جنتان). واذا اردت ان تحقق ان جنة الدنيا شبيهة بشقيقتها فتأمل قوله تعالى: (كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا، قالوا هذا الذي رزقنا من قبل، واتوا به متشابها، ولهم فيها ازواج مطهرة وهم فيها خالدون). سورة البقرة 25.

والتي كان فيها آدم قيدت عليه، وزيادة ان من دخلها يكون مأمون الخروج، وباختصار انها جنة غيرها. وفي اقوال اهل السنة ما يشعرك بذلك، حتى قال بعضهم: انها محل بالارض مرتفع ذو اشجار وانهار. نقله في (روح البيان).

ثم اعلم، ان جميع ما قدمناه في آدم من جهة كونه نقطة من طين، واما باعتبار المعنى الذي هو به خليفة رب العالمين، فانه ابعد الاشياء عن الادراك، فلهذا لم يؤذن النبي صلى الله عليه وسلم بالخوض في معنى الانسان بين الملا. قال تعالى: **ويسألونك عن الروح قل الروح من امري ربي** (الاسراء:85). وباختصار، ان معنى الانسان من جهة الباطن متعذر ادراكه للانسان، فقد تبعته الحكماء وتداولته العلاماء، وخلاصة امرهم لم نزد على الحيرة فيما هو الانسان، وبأي شيء هو انسان، هل بالروح ام بالبدن ام بالنفس الناطقة ام بالقوة المدركة، ام بالحس المشترك، ام باللطيفة الالهية، ام بالعقل الاول ام غير ذلك؟ جاءت معرفة كنه الانسان من وراء الاذهان، قال عليه الصلاة والسلام: **خلق الله آدم على صورة الرحمان**. والمعنى، والله اعلم في غموض الكنه والحقيقة، جاءت روح الانسان على صورة الرحمان من جهة التنزيه، اذ ليس لها في الممكنات شبيه،

موجودة في الانسان مفقودة في العيان، لا تتحيز في الابدان، ولا تتوصل لها الاذهان، تباعدت عن الادراك، واتسعت عن الافلاك، لا تدركها الابصار، ولا تحويها الافكار، لا تحلُّ هي في البدن، ولا هي خارجة عليه، لا منفصلة عنه ولا متصلة به، اولها آخر، وباطنها ظاهر، غائبة بالذات، حاضرة بالصفات، ليس لها جهة ولا تخلو منها الجهات. حارت فيها العلماء وتوقف فيها الحكماء، فمقامها جليل، والفهم فيها كليل. قال تعالى لمن اراد التوصل الى معناها: **وما اوتيتم من العلم الا قليلا**. وبهذا الاعتبار تعذرت معرفة النفس على الانسان حتى جاء في الاثر ما معناه «من عرف نفسه فقد عرف ربه» فحمل بعضهم معرفة الله من طريق الخصوص على الاستحالة، لانها علقت على محال، حيث كان يرى معرفة كنه نفس الانسان من قبيل المستحيل، واني اقول: من الممكن التوصل لماهية النفس على سبيل التحقيق، وهي اهدى السبل لمعرفة الله عز وجل. قال تعالى: **من اهتدى فانما يهتدي لنفسه** (الزمر:41)، اي يهتدي لمعرفتها على طريق التحقيق. **ومن ضل فانما يضل عليها** (الزمر:41). وكثير من اقوال القوم تشير الى ان الوصول الى الله هو وصوله لنفسه، واشد الضلال هو ان يضل الانسان عن نفسه.

وعليه، اذا ثبت عجز الانسان عن ادراك ماهية نفسه، فلا يستغرب في عدم ادراكه للالوهية، لانها تجل عن ان تشبه النفس الا من جهة تعذر الادراك في كل منهما. فالواجب على من اعتمد الفكر في المعقولات، ان لا يستعمله في كنه ذات الباري، لان معرفته جاءت من وراء العقول، وليس عليه الا ان يؤمن بوجود المدبر لهذا العالم، كما يؤمن بوجود نفسه مع عدم ادراكه لماهيتها. وهكذا لا يتكلف لما يختص بالحق من جهة الكنهية، لما قدمناه من ثبوت عجز الانسان عن ادراك معنى الانسان، فيكون عجزه عن ادراك معنى كنه الالوهية من باب الاحروية، ولا يقيس ما عنده من الفكر السقيم على اهل المقام العظيم، كالانبياء، وخواص الاولياء، القائلين بمعرفتهم للالهيات على سبيل التحقيق، فانهم عرفوا الله بما اودعه فيهم، لا بقلم وقرطاس، او تقول بمنطق وقباس، فالحق اعز من ان تتوصل إليه الحواس.



المبحث الرابع والعشرون

فيما يتعلق بالمعاد

لما كان اول الكتاب للايجاد، لزم ان يكون آخره للمعاد، فاقول وعلى الله الاعتماد: ان ما يتعلق بالكون من جهة الانقراض جاء موقوفا على الايجاد، فمدة عمر الارض موقوفة - والله اعلم - على نفاد المواد فيما يرجع لسكانها من جهة الانتفاع، فمتى تخلت عما فيها جاءها الخراب. قال تعالى: **واذا الارض مدت، والقت ما فيها وتخلت، واذنت لربها وحقت** (الانشقاق: 3-5). **علمت نفس ما قدمت واخرت** (الانفطار:5). وقال ايضا: **اذا زلزلة الارض زلزالها واخرجت الارض اثقالها** (الزلزلة:1-2)، الى آخر الآية. فدل ذلك على ان الارض لا ينتهي اجلها الا اذا تخلت عما فيها، ولا تظن ان الدنيا هي في احسن حال، بالنسبة لما كانت عليه. نعم، هي كذلك من جهة الظاهر لا باعتبار ما هي عليه في نفس الامر من جهة الباطن، فهي الى الهرم اقرب، فاكثر ما كان في باطنها برز على ظاهرها، فعمران الظاهر دليل على خراب الباطن، حتى اذا نفد ما هنالك، جاءت الساعة. ولا بد من النفاد، لان مجموع المتناهي متناه.

واذا فهمت هذا ، فلا تستبعد حينئذ وجود الغاية لهذا العالم ، وتقول لابد من يوم يختل فيه نظام الارض ، وتتعطل فيه حركتها ، وسبب تعطيل الحركة ظهور الشمس من مغربها ، وتتفجر نار منها على خلاف العادة من جهة الباطن ، جاء في الحديث: **ان من علامة الساعة خروج نار من جهة المشرق، تسوق النـاس الى المحـشر** . (1) وكل هذا دال على ان تلقي جميع ما فيها ، غير ان مدة حياتها لم تتعين . قال تعالى لنبيه على حذف القول: **وان ادري اقريب ام بعيد ما توعدون** . اي اني لا اعلم متى تكون الساعة ، مع اني على يقين من وجودها ، ومع هذا ما من نبيء الا ويقول بقربها ، ويحذر امته من وقوعها ، وتكون قريبة من وجهة ، وبعيدة من الاخرى ، فبعيدة باعتبار الحياة العامة التي لم تقيد بانسان دون آخر ، فانها تتضمن دهورا مديدة ، وقرونا عديدة . جاء في الحديث: **ان الدنيا خاطبت آدم قائلة: جئتني وقد انتهى شبابي** . فاين مدة شبابها ، اذا كان مجيء آدم بعد انقضائه ؟ وكم مرت سنون من بعد آدم ؟ والحالة انها ترى كانها في اول زمانها .

واما قرب الساعة المتعين به الايمـان الذي جاء به

---

(1) ومثله قوله تعالى: (واذا البحار فجرت) . قيل: انها تتفجر نارا .

الاثر ، وصريح القرآن راجع للانسان في خاصة نفسه قال تعالى: **وما امر الساعة الا كلمح البصر او هو اقرب** (النحل:77) فدل هذا على ان الساعة اقرب شيء للانسان، اذ ليس بينه وبينها الا مفارقة جسده. والحاصل ان ما بين الانسان والبعث الا مدة (1) حياته فهي للايجاد والاخرى للميعاد. قال عليه الصلاة والسلام: **من مات قامت قيامته**. فلا تتخيل المدة التي تمر على اهل الدنيا بتمامها هي التي تمر على آدم مثلا ، فزمان الدنيا ظرف لأهلها ، اذ لو سألت من مات في عهد آدم عليه السلام يوم البعث كم لبثت؟ لقال: **لبثت يوما او بعض يوم**، فتجد مدة من مات في اول الدنيا ومن مات في آخرها سواء بهذا الاعتبار، فمدة الدنيا لا تعقل لاهل الآخرة، واذا فهمت هذا علمت قرب البعث منك وبعده، ولذلك الاشارة في قوله تعالى: **انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا** (المعارج:6-7)، اي يرونه بعيدا باعتبار الحياة العامة ، ونراه قريبا باعتبار خاصة الانسان في نفسه ، والعجب كل العجب ممن ينكر

---

(1) قوله: الا مدة حياته لان فلك اهل الآخرة غير فلك اهل الدنيا ولهذا قال تعالى حكاية عن سيدنا (عزير) عليه السلام لما قيل له كم لبثت؟ قال: لبثت يوما او بعض يوم.

الطواريء التي جاءت فيما بعد الموت، وهو يطرأ عليه في الدنيا ما يقرب منها في نومه، لانه اقرب الاشياء لاحوال الآخرة، وكل انسان يدرك حال النوم، وما يطرأ عليه من النعم والنقم في حالة غائبا فيها عن جسده، مع انه في قيد من جهته، الا ترى لو تجرد عنه تجريدا كليا فمن المعلوم يدرك اكثر مما كان عليه، لان في الخروج عن البدن يقظة كلية. قال عليه الصلاة والسلام: **الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا**. وقال تعالى: **فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد** (سورة ق:22) وليس هو الا التجرد من الحس، وعليه، فان الميعاد اقرب للانسان من الايجاد، اذ ليس بين الناس والبعث الا مجرد نومة باستقلال، وهي المعبر عنها بمدة البرزخ، **فاذا هم قيام ينظرون** (الزمر:68) فكان بهذا الاعتبار منوطا بليلة القبر، والله اعلم بما في نفس الامر.

وهنا انتهى ما يسَّر الله جمعه من كتاب (مفتاح الشهود في مظاهر الوجود) وكان الفراغ منه صبيحة يوم الثلاثاء من شهر الله شعبان المعظم بعدما مضت منه خمسة عشر يوما، سنة اثنين وعشرين وثلاثمائة وألف من هجرة الذي خلق على احسن وصف صلى الله عليه وسلم. (الموافق لـ 25 اكتوبر 1904م)

تقريظ للاستاذ الشيخ العياشي سكيرج
لكتاب مفتاح الشهود

نذيل خاتمة هذا الكتاب بهذه القصيدة العصماء، لصاحبها النبيل، الاستاذ الجليل، الشيخ سيدي **احمد بن الحاج العياشي سكيرج**، صديق مولانا الاستاذ رضوان الله عليه وان من تأمل معنى الكتاب وتذوقه تذوقا سليما، ثم تأمل في دور هذه القصيدة، فلا ريب يجدها شبه زجاجة على مصباح، والزجاجة كأنها كوكب دري، قال جزاه الله:

هذا كتاب عظيم ❋ للمثل حقا عديم
وكيف لا وهو فيه ❋ كل العقول تهيم
فيه تبدت علوم ❋ يهدي اليها العليم
وحكمة الله فيه ❋ بها يباهي الحكيم
فانظر لما قد حواه ❋ ففيه سر عظيم
يهدي الحق ولكن ❋ طريقه مستقيم
يشفي القلوب ولكن ❋ نفع لديه عميم
ما هو غير رياض ❋ بها النعيم المقيم

متع لحاظك فيه * والقلب منك سليم

وان تكن ذا اعتراض * فالفهم منك سقيم

فامعن الفكر فيه * ففيه سر فخيم

وفيه علم كثير * وفيه خير جسيم

لا زال مبديه يسمو * وهو الامام العظيم



الى القارىء الكريم

هذا هو كتاب ‹‹**مفتاح الشهود في مظاهر الوجود**›› قد تم بعون الله طبعه، وهذا هو الكتاب الذي طالما انتظره كل من سمع به، وهذا هو الكتاب الذي رغب منا القريب والبعيد طبعه من بين مؤلفات مولانا الاستاذ رضوان الله عليه، وهذا هو الكتاب الذي جاء فيه صاحبه بالتحقيق والتدقيق لا في علم الهيئة فقط، بل هو الى التوحيد الخالص اقرب منه الى علم الهيئة والافلاك السماوية، وان هو قد اعطى كل ذي حق حقه، وان وجود هذا الكتاب في عصرنا هذا لَيُعَدُّ آية ناطقة بالحق المبين لكل من قرأه بطوية شريفة وتدبر معانيه بفكرة منيفة، ولا غلو اذا قلنا انه خير كتاب اخرج للناس يهديهم للتي هي اقوم بالتي هي اسلم.

هذا هو ‹‹مفتاح الشهود›› ذكرنا هذا العنوان ثم نكرره عساه كلما تكرر تقرر.

هذا هو كتاب ‹‹مفتاح الشهود في مظاهر الوجود›› وان من طرق الباب بغير مفتاح فلا شك انه يبقى في حجاب من وراء الباب، واما من صحب معه مفتاح الشهود فلا شك يكشف له عن مظاهر الوجود ان لم نقل

عن ملكوت الواحد المعبود ، وهو المقصود المنشود
(**وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون**
من الموقنين) (الانعام:75) فهل من راغب في الايقان ؟
وهل من متشوق الى مقام الاحسان ؟ وهل من طالب
لمعرفة الشهود والعيان ؟ حتى تفيض عليه معارف
الرحمان بالاذواق السليمة والوجدان ، فينتقل من شأن
الى شأن بفنائه عن الاكوان ذات الاشكال والالوان ،
ويعمه الفضل في كل اوان ، فيدخل حضرة الله بمحض
الفضل والامتنان ، **(فيها عينان تجريان) (فيها من كل**
فاكهة زوجان) (فيها عينان نضاختان، فبأي الاء ربكما
تكذبان).

اما انت ايها المنتسب الكريم ، فهذا اوان نشاطك
فشمر عن ساق الجد ، وانهض لحظك من كتاب
<<مفتاح الشهود>> فانه مفتاح الشهود ، وما ادراك ما
الشهود ان كنت من اهل الشهود ، واياك والتواني على
اقتناء تلك المعاني ، فيفوتك خير كثير ، وتبقى من بين
اوهامك كئيبا كسيرا ، مكتفا اسيرا ، وليس ذلك من
شأنك ، انما شأنك الصدق والتصديق ، والسير الى اقوم
طريق ، حتى يتجلى لك الحق بكل تحقيق ، ومن يعد
عن سنة السلف فقد تلف .

فهرسة الكتاب

